أ

مع كتاب الرئيس غورباتشوف

البيريسترويكا - اعادة البناء

محاولة نقد وتحليل

الجزء الأول

وثائق كه‌ردان به‌نا

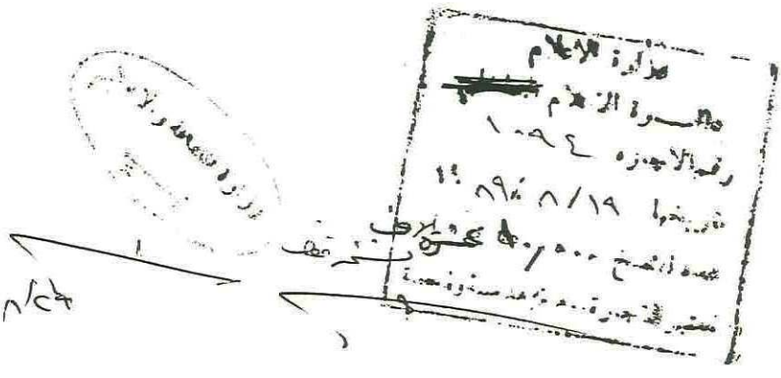

فسح لهم حذف الاسم
من الصفحات ٢٥، ٢٨، ٢٩
٥٧١ ٥٥١ ٥١
٢٠٠٢/٢/٢٥

بيريسترويكا غورباتشوف
نقد و تحليل

مودعه لدى
كه‌ردان به‌نا

الجزء الأول

كلمة تمهيد

حين كتبت رسالتي الموسومة « الى العظيم غورباتشوف، كيف وجاء » لم أكن أطلعت في قراءاتي على اي شيء مكتوب في الاتحاد السوفيتي يتعلق بعهد البيريسترويكا والغلاسنوست عدا خطاب - يومئذ - الرفيق غورباتشوف في الاجتماع السابع والعشرين للحزب الشيوعي بتاريخ ٢٥ شباط - فبراير عام ١٩٨٦ . وبعد أشهر من طبع رسالتي شاءت لي الظروف الحالية نسخة من كتاب « البيريسترويكا » ترجمة حمدي عبد الجواد بمراجعة محمد المعلم - من منشورات دار الشرقي في بيروت، واعداداً من بعض صحف ومجلات موسكو لعهد اعادة البناء والمكاشفة، فتحت أمامي آفاقاً واسعة ارتادها - عند الامكان - واجتلى منها اموراً تتعلق بفترة ستالين فما بعدها حتى عهد الرئيس غورباتشوف وواقعاً قائماً للاتحاد السوفيتي على صعيديه الشعبي والرسمي من غليان تختلط فيه الرواسب المتراكمة مع بثقات الرفع المنبعث من ينابيع خُتم عليها حوالي سبعين سنة . فبدا لي بوضوح أن أقصى تصوراتي للشر الذي اطبق على الشعوب السوفيتية خلال عشرات السنين لم تجاوز قط حجمها الحقيقي المنكشف عما يكتبه عنه عامة افراد الشعب السوفيتي في صحف هذه الأيام ومنشوراتها ولا كان ما توقعته من فداحة العراقيل بوجه اعادة البناء أضخم عن واقعها فألح على شعور طاغ لا يقاوم باستئناف خطى سبقت في رسالتي المذكورة اواكب بها كتاب « البيريسترويكا - إعادة البناء » على قدر ما تتسع له الاستطاعة وتسمح به ظروف الطبع والنشر، ولقد استطالت الكتابة حتى فرجت عني أن تستوعبها كتاب واحد فوجدت أن أنشر منها الجزء الأول في اول فرصة ورعاً ملحوظين : الأول كلفة طبع جميع ما سأكتبه في كتاب واحد بما يخرج عن إطار قدرتي . والثاني تأخر نشره مرة واحدة الى زمان لا أملك تحريفه واحتمالاته . فكان هذا الجزء الأول اسهاماً ما جهد بذلته في تمليس مساحة صغيرة من شارع يزجو أن يهد يسير التوجه الى افق اكثر نوراً واوفر أماناً .

بغداد - ٤ / ٨ / ١٩٨٨ مسعود محمد

« الى القارئ »

ذلك هو تصدير او عنوان مقدمة الكتاب التي استغرقت ست صفحات من الخامسة حتى العاشرة ؛ ووردت في هذه المقدمة آراء جمة لا تخلو من حاجة الى تعقيب ولكني اقتصرت على عدد منها دفعاً للأطالة المتعبة لي وللقارئ . والنقاط المختارة من المقدمة وما سيأتي منها في تناول متن الكتاب لا تغني القارئ عن مراجعة الكتاب نفسه فليس من الممكن نقل روح الكتاب ولا الجو المحيط بالنقاط التي يتناولها التعليق بكتابة نصوصها المقتضبة في هذه الصفحات . وسيجد القارئ أن جانباً من كلامي يشير الى آراء وردت في كلام الرئيس غورباتشوف دون أن تكون نصوصها نُقلت لأن المنقول يقتصر على ما يتم التعقيب عليه فقط . وفي هذا الأطار من الاقتباس انقل فيما يلي صيغ الآراء التي اعقب عليها بالتتابع حسب موضعها من المقدمة واولها نص في أوائل الصفحة ٦ من الكتاب / الصفحة الثانية من المقدمة / بتصرف في غاية الأختصار وهو في معرض قوله عن ضرورة نشر كتابه ووجوب إطلاع ذوي الشأن عليه من سياسيين و رجال دين ورجال أعمال وصحفيين ومدرسين ... الخ ينهي كلامه بالجملة التالية :

« بخاصة وأن الصحافة والتلفزيون في الغرب تجتاحها موجات من سوء النية تجاه بلادي » .

فالذي اراه في هذا الصدد هو ان سبب اطناب الرئيس غورباتشوف هذا مرده الى عوامل أولية تنتاب الى الوعي واللاوعي بصور الاشياء دون اي اشتراك بينه الذهن الى التوقف فتصبح وكأنها بديهيات . من هذه العوامل ان أجهزة اعلام الغرب عموماً تهتم بالجوانب المثيرة للأحداث والآراء والمواقف حتى أن صور الكوارث في المجلات والتلفزيون تطغى مئة مرة على صور الزهر والرقص والأفراح . ولو دقق المطلع على ما يسمع ويرى في أجهزة اعلام الغرب لأدرك ان يقول ان شعوب الغرب على وشك الانهيار لكثرة عرض السلبيات والمعوقات والاخفاقات التي تضخمها تلك الأجهزة من حيثيات وتفاصيل المعيشة اليومية الغربية . هم في العادة لا يذكرون الا عند الضرورة عوامل الامان والضمان والتقدم لأنها رصيد مرئوف منه لا داعي لذكره ولا نفع يحصل من تكراره بعكس السلبيات فهي تتطلب التكرار و التركيز عليها عسى ان تعالج بسرعة . لا اعدو الواقع ، اني كثيراً ما اسمع من اذاعة لندن اخباراً ضد السياسة البريطانية تفوق ما هو موجه منها ضد روسيا وليس ذلك من باب الرحمة بروسيا ولكن لكون التهجم على سياسة بريطانيا أوجع وأقسى وهي منتقدة في الداخل وفي الخارج على حد سواء . ويقاس من ذلك سائر مصادر الاعلام . وعلى الحر ان يتابعني لاستماع الاذاعات فان اذاعة موسكو اشد عداوة في طبيعتها بمراحل ولا اظنني سمعتها مرة واحدة تقول كلاماً هيناً عن الغرب

في نهاية هذه الصفحة عبارة موجزة اقتطفها لأقول فيه قول في منتهى الايجاز، تقول العبارة مايلي: « ولقد قدم الحزب الشيوعي تحليلا انتقاديا للوضع الذي تطور بحلول منتصف الثمانينات ».

ان الحزب الشيوعي نام أكثر من سبعين سنة، وفي منتصف الثمانينات استيقظ جزء منه أخذ قيادة اعادة البناء، والذي أعرفه من كلام عامة الكتاب السوفيت الذين ينشرون آراءهم في صحف روسيا، هذه الأيام، ان غالب المعارضة للبيريسترويكا تقوم من أصحاب الامتيازات من الحزبيين خوفا من زوالها، وهل كانت التصفيات الأخيرة/ بعزل هذا وتجميد هذا الا من بين غلاة البيروقراطيين الحزبيين، وهل الخطر الأكبر على حركة التصحيح والاصلاح الا منهم؟

في الصفحة ٧ من الكتاب قول عن تفسيرات الغرب للبيريسترويكا يلخصها الكتاب بقوله: « هناك رأي يقول بأنها فرضتها الحالة المتدهورة للاقتصاد السوفيتي وأنها تعني التخلي عن الحلم بالنسبة للاشتراكية، وان ثمة أزمة بالنسبة لمثلها وأهدافها النهائية » ثم بعد ذلك يعلل الكتاب من وجهة نظره بروز البيريسترويكا بأسباب منها قوله: « كان الدافع... عدم رضانا عن الطريقة التي كانت تسير بها الأمور في بلادنا » ويقول بعده مباشرة « ولكن دفع الينا بدرجة كبيرة الوعي بأن طاقة الاشتراكية الكامنة لم يستفد منها كما يجب ». ثم يتعرض في جمل أسس التفاؤل في التغلب على الصعوبات بوجود أساس مادي سليم لديهم وثروة من الخبرات ونظرة عالمية عريضة...

وفي رأيي ان تدهور الاقتصاد السوفيتي الذي هو مظهر التدهور الذي اصاب قواعد النظام سبب ظهر من اسباب اعادة البناء للداعي لأفكاره فاذا كان الاقتصاد سليما بسلامة القواعد التي يرتكز عليها فما الداعي لاحداث صحة سلبية تهز أركان الدولة، وما الغرض من اعادة البناء في بناء قوي؟ ان الشعب الروسي وبقية الشعوب السوفيتية قد تحمل بعد كوارث الحرب مذلة جديدة في ستالينية منتصرة والحق بالقحط في الستينات على حين كانت الدنيا من حوله تموج بالمهرجانات الشبعانة الكسيانة وخلفته اليابان المهزومة وراء ظهرها في كل ميادين الحياة المترفة. هذا الشعب كان خليقاً أن يعبد عهدا في الستينات وما بعدها يتصف بالمواصفات التي يدافع عنها الرئيس غورباتشوف. أما ان الطاقة الكامنة للاشتراكية لم يستفد منها فالذي هو معلوم في تجربتكم وتجربة غيركم ومستخلص بالمنطق والتفكير السليم ان الاشتراكية المفروضة بالقوة وغير النابعة من طبيعة التطور الحضاري ليس لها إلا المضمون الذي اكتشفه ستالين وهو سوق الناس بالعصا وتخييب الفلاح بنزع الأرض منه وقطع الأنس بالأرض وتسليط الحزب على الصناعة والثقافة وضيالات اليقظة وأوهام الكرى مؤيدا بأجهزة امنية ترعب حتى الشياطين. لقد رأيت في انتخاباتكم وانتخابات بولونيا ان الأحزاب الشيوعية مكروهة من الشعب وهذا وجه خوف تلك الأحزاب من اعادة البناء لأنها ستتلاشى الى كتل منفورة من ناس لا ينتجون شيئاً

ويأكلون كل شئ . هذه الأحزاب في سباق مع شعوبها أكثر مما تكون روسيا في سباق مع امريكا فالهدنة شبه مستحيلة بين البيروقراطية وبين عامة الشعب ولكن الصلح والتعايش ممكن بين روسيا وامريكا . ان اوضاعا واحوالا لا تقاوم تفرض على سياستك مواقف وبيانات سياسية لا تختبرها وفي موضوعنا الذي نناقشه نجد مصداقا لما أقوله في كلام لسياستك يأتي في الثلث الأخير من الصفحة (٧) نفسها اذ تقول: « ان البيريسترويكا قد برهنت على أن حلا أصعب مما تصورناها في البداية » . ان جوهر الصعوبة يتمثل في ان الاشتراكية البلشفية هي القمع بعينه ولا شئ آخر غير القمع .. يقولون ان السمندر حيوان يعيش في النار ، وأقول ان القمع يعيش في القمع وان الاستبداد يعيش في الاستبداد وان الدكتاتورية تعيش في الدكتاتورية وان ميكروب السل يعيش في المرض . وارهو المعزة في صراحتي ..

في نهاية الصفحة (٧) يرد الكتاب على من يقول بأن اهداف البيريسترويكا كانت وراء المقترحات السلمية الروسية في المجال الدولي ، يرد عليه بقوله: « ... وهذه مبالغة في تبسيط الأمور فمن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتي يعمل منذ فترة طويلة من أجل السلام والتعاون .. الخ » وأترك تعليقي الى موضع آخر سنلتقي به في بعض صفحات متن الكتاب هذا الجزء أو غيره مما سيأتي .

والصفحة الثامنة كلها كلام جميل في الوضع الدولي ووجوب قهر الذعر النووي ، وفي نهاية الكلام في ذلك صادفت المراجعة الى هدف بعيد اذ تقول: « ... اننا نريد عالما متحررا من الحرب وبدون سباق تسلح ، واسلحة نووية وعنف ، ليس فقط لان هذا وضع افضل لتطورنا الداخلي ، انه احتياج عالمي موضوعي ينشأ من وقائع ايامنا الحاضرة » . وتأتي العبارة التالية في الثلث الأخير من الصفحة حاسمة الدلالة: « ويبدو أن كل امرئ يوافق على أنه لن يكون هناك منتصر أو خاسر في مثل هذه الحرب . ولن يكون هناك من يبقى حيا » وتقوى هذه الدلالات بعبارة في غاية الروعة في وسط الصفحة (٩) تقول: « كنت جالسا في كابينة على ظهر سفينة واحدة هي الأرض وعلينا الان أن نفرق فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية » . ويستمر الكلام في الوتيرة الجميلة نفسها حتى نهاية الصفحة (١٠) وهي نهاية الحقنة التي عنوانها (الى القارئ) .

لي تعليق عابر مغاير للاتجاه الرئيس عموما تشوف ولكن من زاوية خاصة: ان الذعر النووي يتفاقم يوما بعد يوم ليس فقط لعدم توصل ~~الشرقيين~~ المعسكرين الى حظر الاسلحة النووية وتخريب ترساناتها بل لأن الاحتمال يتزايد بوصول الدول المجنونة الصغيرة وعصابات التهريب والارهاب الى امتلاك مقدار من النوويات والميكروجينيات في مدى ٥٠ سنة او ١٠٠ سنة يكفي لخراب العالم او جانب كبير منه ثم انه يفعل ما هو أفظع من ذلك بكونه سببا في اختلال حسابات الدول الكبيرة وارتباك التدابير اللازمة لحصر خطرها ثم القضاء عليه فالدول الكبيرة ما زالت متباينة المواقف في موضوع الارهاب الدولي وتفضل الصداقة مع هذا والعداوة

مع ذلك وموازنات مصالح وخسارات المعسكر المقابل فإرهاب قائم وإرهاب يزول، تفعل فعلها الحاسم في ترك الإرهاب يستشري مع أن علاجه في أول قائمة الأولويات وأسهلها في علاقات الدول الكبرة ويكون عدم القدرة على اتخاذ موقف موحد عربيا مؤقتا بتعذر القدرة على علاج المشكلة من أساسها، إن شكل الإرهاب الدولي هو من أخطر وجوهه ضمن علاج الذعر الدولي.

وفيما يلي يبدأ التعقيب على فصول الكتاب حسب تسلسلها وبمقتضى ما هو مطلوب من تكلف العناء في محاولة اغناء مضمونه على قدر طاقتي في البرهنة و التسبيب بنية خالصة موثوق من أمانتها في تحقيق أي غير عام مقدور عليه.

الفصل الأول

البريسترويكا

- ١ -

أصولها و جوهرها وطابعها الثوري

بعد أن انهينا من المرور الخاطف بنقاط بارزة من مقدمة الكتاب وقبل الدخول في التعليق على ما يجب التعليق عليه من مواضيع الكتاب نفسه لا بد من القول بأن الكتاب كله وما وراءه من حيثيات الأحداث والايديولوجيات والمواقف وتركيبة القوميات في المجتمع السوفيتي رجوعاً الى تأريخه القديم و نزولاً منه الى عملية ثورة أكتوبر وما واجهها من خلاف رأي الجهات المشاركة فيها حول وتيرة تقادي الثورة في التغيير وما كان من فوز اصرار لينين على ابلاغ او تطوير الاتجاه الديمقراطي الأول للثورة الى اتجاه راديكالي يفرض حسب رؤيته القضاء على المشاكل بضربة واحدة وليس على مراحل، كل ذلك وغير ذلك مما يتصل بهذه الموضوعة عرضاً و عمقاً من التواصل والمؤثرات أمر ذو خطورة حاسمة في فهم ظاهرة (روسيا السوفيتية) فهماً شاملاً عميقاً يوضح العجب عن توالي تأريخه على النحو الذي توالى به من اول يوم وصلت فيه السوفيتات الى مواقع السلطة حتى يوم رفع فيه الرفيق غورباتشوف شعاره بوجوب « اعادة البناء » - ثم ان ذلك كله لا يكفي بنفسه لفهم الموضوع من جميع الوجوه فالدولة السوفيتية ما نشأت في فراغ عن حولها ولا بين دول متخلفة ولا حتى بين دول تماثلها في قوة الحضارة و التطور - ثم انها ما دبت على اديم التاريخ مدفوعة بحكم الاحداث والمستلزمات التي تقود بذاتها خطى المجتمعات في تحاولها مع الدنيا من حولها بحسب موازين الربح والخسارة:

هناك تركيبة دولة القياصرة في روسيا نفسها وعقلياتها « وستعمراتها » الواسعة.
وهناك دول متقدمة تصطدم بالدولة الجديدة او تضطرم بها الدولة الجديدة.
وهناك دول متخلفة وشعوب لم تبلغ بذاتها حد تشكيل دولة.
وهناك « أنجيل » للدولة السوفيتية يصوغ تاريخها وتصرفاتها وفهمها للحضارة و النافع ومعاني الأشياء في كل ما هو « اجتماعي » . ولا ينقص هذه الحقيقة ان من يطبق الأنجيل الجديد يفسره على هواه او على ما يعتقد انه المصلحة فانه لابد من ان تجري الأمور في ضوء هذا الأنجيل القديل على نحو من الانحاء.

كلمة تمهيد

حين كتبت رسالتي الموسومة « الى العظيم غورباتشوف، كيف وجاء » لم أكن أطلعت في قرأتي على اي شيء مكتوب في الاتحاد السوفيتي يتصل بعهد البيريسترويكا والغلاسنوست ما عدا خطاب - يومئذ - الرفيق غورباتشوف في الاجتماع السابع والعشرين للحزب الشيوعي بتأريخ ٢٥ شباط - فبراير عام ١٩٨٦ .

وبعد أشهر من طبع رسالتي سافرت الى الظروف العراقية نسخة من كتاب « البيريسترويكا » ترجمة حمدي عبد الجواد بمراجعة محمد المعلم - من منشورات دار التقدم في موسكو، واعداداً من بعض صحف ومجلات موسكو لعهد اعادة البناء والمكاشفة، فتحت أمامي آفاقاً واسعة ارتادها - عند الامكان - واجتلى منها اموراً تتصل بفترة ستالين فما بعدها حتى عهد الرئيس غورباتشوف واقعاً قائماً للاتحاد السوفيتي على صعيديه الشعبي والرسمي من خلال تختلط فيه الرواسب المتراكمة مع بثقات الرفع المنبعث من ينابيع خُتم عليها الى سبعين سنة - فبدا لي بوضوح أن اقصى تصوراتي للشر الذي اطبق على الشعوب السوفيتية خلال عشرات السنين لم تجاوز قط حجمها الحقيقي المنكشف عما يكتبه عنه عامة افراد الشعب السوفيتي في صحف هذه الأيام ومنشوراتها ولا كان ما توقعته من فداحة العراقيل بوجه اعادة البناء أضخم من واقعها فألح على شعور طاغ لا يقاوم باستئناف خطى سبقت في رسالتي المذكورة اواكب بها كتاب « البيريسترويكا - إعادة البناء » على قدر ما تتسع له الاستطاعة وتسمح به ظروف الطبع والنشر، ولقد استطالت الكتابة حتى خرجت عن أن يستوعبها كتاب واحد فوجدت [illegible] منها الجزء الأول في اول فرصة ورأيت ملحة وريثما الأول كلفة طبع جميع ما سأكتبه في كتاب واحد بما يخرج عن إطاق قدري - والثاني تأخر نشره مرة واحدة الى زمان لا أملك تعريفه واحتمالاته. فكان هذا الجزء الأول اسهاماً عما جهد بذلته في تقليص مساحة صغيرة من شارع يزجوان يعهد يسير التوجه الى افق اكثر نوراً واوفر أماناً .

بغداد - ٤ / ٨ / ١٩٨٩ مسعود محمد

« الى القارئ »

ذلك هو تصدير أو عنوان مقدمة الكتاب التي استغرقت ست صفحات من الخامسة حتى العاشرة : ووردت في هذه المقدمة آراء جمة لا تخلو من حاجة الى تعقيب وكلي اقتصرت على عدد منها دفعاً للأطالة المتعبة لى وللقارئ . والنقاط المختارة من المقدمة وما سيأتي منها في تناول متن الكتاب لا تغني القارئ عن مراجعة الكتاب نفسه فليس من الممكن نقل روح الكتاب ولا الجو المحيط بالنقاط التي يتناولها التعليق لكتابة نصوصها المقتضبة في هذه الصفحات . وسيجد القارئ أن جانباً من كلامي يشير الى آراء وردت في كلام الرئيس غورباتشوف دون أن تكون نصوصها نُقلت لأن المنقول يقتصر على ما يتم التعقيب عليه فقط . وفي هذا الأطار من الأقتباس انقل فيما يلي صيغ الآراء التي اعقب عليها بالتتابع حسب موضعها من المقدمة واولها نجده في أوائل الصفحة ٦ من الكتاب / الصفحة الثانية من المقدمة / بتعقيب في غاية الأختصار فهو في معرض قوله عن ضرورة نشر كتابه ووجوب إطلاع ذوي الشأن عليه من سياسيين و رجال دين ورجال أعمال و صحفيين ومدرسين --- الخ ينهي كلامه بالجملة التالية :

« بخاصة وأن الصحافة والتلفزيون في الغرب تجتاحها موجات من سوء النية تجاه بلادي » .

فالذي اراه في هذا الصدد هو ان سبب الطباع الرئيس غورباتشوف هذا مرده الى عوامل أولية تنتاب الى الوعي واللاوعي بصور الاشياء دون اي اشتغال ينبه الذهن الى التوقف فتمضي وكأنها بديهيات . من هذه العوامل ان أجهزة اعلام الغرب عموماً تهتم بالجوانب المثيرة للأحداث والآراء والمواقف حتى أن صور الكوارث في المجلات والتلفزيون تطغى مئة مرة على صور الزهر والرقص والأفراح . ولو دقق المطلع على ما يسمع ويرى في أجهزة اعلام الغرب لأوشك ان يقول ان شعوب الغرب على وشك الانهيار لكثرة عرض السلبيات والمعوقات والاخفاقات التي تضخمها تلك الأجهزة من حيثيات وتفاصيل المعيشة اليومية الغربية . هم في العادة لا يذكرون الا عند الضرورة عوامل الامان والضمان والتقدم لأنها رصيد مؤلوف منه لا داعي لذكره ولا نفع يحصل من تكراره بعكس السلبيات فهي تتطلب التكرار و التركيز عليها عسى ان تعالج برجة . لا اعدو الواقع ، الى كثيراً ما اسمع من اذاعة لندن اخباراً ضد السياسة البريطانية تفوق ما هو موجه منها ضد روسيا وليس ذلك من باب الرحمة بروسيا ولكن لكون التهجم على سياسة بريطانيا أوجع وأقسى وهي منتقدة في الداخل وفي الخارج على حد سواء . ويقاس من ذلك سائر مصادر الاعلام . وعلى الحر بمقابلتي لاستماع الاذاعات فان اذاعة موسكو اشد عداوة في طيشها بمراحل ولا اظنني سمعتها مرة واحدة تقول كلاماً هيناً عن الغرب

في نهاية هذه الصفحة عبارة موجزة اقتطفها لأقول فيه قول في منتهى الايجاز، تقول العبارة مايلي: « ولقد قدم الحزب الشيوعي تحليلا انتقاديا للوضع الذي تطور بحلول منتصف الثمانينات ».

ان الحزب الشيوعي نام أكثر من ستين سنة، وفي منتصف الثمانينات استيقظ جزء منه أخذ قيادة اعادة البناء، والذي أفهمه من كلام عامة الكتاب السوفيت الذين ينشرون آراءهم في صحف روسيا، هذه الأيام، ان غالب المعارضة للبيريسترويكا تقوم من أصحاب الامتيازات من الحزبيين خوفا من زوالها، وهل كانت التصفيات الأخيرة/ بعزل هذا وتجميد هذا الاثنين بين غلاة البيروقراطيين الحزبيين، وهل الخط الأكبر على حركة التصحيح والاصلاح الذي نتابعه منهم ؟

في الصفحة ٧ من الكتاب قول عن تفسيرات الغرب للبيريسترويكا يلخصها الكتاب بقوله: « هناك رأي يقول بأنها فرضتها الحالة المتدهورة للاقتصاد السوفيتي وأنها تعني التخلي عن الحلم بالنسبة للاشتراكية، وان ثمة أزمة بالنسبة لمثلها وأهدافها النهائية » ثم بعد ذلك يعلل الكتاب من وجهة نظره بروز البيريسترويكا بأسباب منها قوله: « كان الدافع... عدم رضانا عن الطريقة التي كانت تسير بها الأمور في بلادنا » ويقول بعده مباشرة « ولكن دفع الينا بدرجة كبيرة الوعي بأن طاقة الاشتراكية الكامنة لم يُستفد منها كما يجب ». ثم يتعرض في جمل أسس التفاؤل في التغلب على الصعوبات بوجود أساس مادي سليم لديهم وثروة من الخبرات ونظرة عالمية عريضة...

وفي رأيي ان تدهور الاقتصاد السوفيتي الذي هو مظهر التدهور الذي اصاب قواعد النظام سبب ظهر من اسباب اعادة البناء للداعي لأنكاره فاذا كان الاقتصاد سليما بسلامة القواعد التي يرتكز عليها فما الداعي لاحداث هزة سلبية تهز أركان الدولة، وما الغرض من اعادة البناء في بناء قوي؟ ان الشعب الروسي وبقية الشعوب السوفيتية قد تحمل بعد كوارث الحرب عزلة جديدة في ستالينية منتصرة وانسحق بالقحط في الستينات على حين كانت الدنيا من حوله تموج بالمهرجانات الشبعانة الكسيانة وخلفته اليابان المهزومة وراء ظهرها في كل ميادين الحياة المترفة. هذا الشعب كان خليقاً أن يعبد عهدا في الستينات وما بعدها يتصف بالمواصفات التي يدافع عنها الرئيس غورباتشوف. أما ان الطاقة الكامنة للأشتراكية لم يستفد منها فالذي هو معلوم في تجربتكم وتجربة غيركم وستخلص بالمنطق والتفكير السليم ان الاشتراكية المفروضة بالقوة وغير النابعة من طبيعة التطور الحضاري ليس لها إلا المضمون الذي اكتشفه ستالين وهو سوق الناس بالعصا وتخييب الفلاح بنزع الأرض منه وقطع الأسى بالأرهاب وتسليط الحزب على الصناعة والثقافة وفيالات البوليس والهام الكرى مؤيدا بأجهزة امنية ترهب حتى الشياطين. لقد ثبت في انتخاباتكم وانتخابات بولونيا ان الأحزاب الشيوعية مكروهة من الشعب وهذا وجه خوف تلك الاحزاب من اعادة البناء لانها ستتلاشى الى كتل منفورة من ناس لا ينتجون شيئاً

وبأكلون كل شئ . هذه الأحزاب في سباق مع شعوبها بأكثر مما تكون روسيا في سباق مع امريكا فالهدنة شبه مستحيلة بين البيروقراطية وبين عامة الشعب ولكن الصلح والتعايش ممكن بين روسيا وامريكا . ان اوضاعا واحوالا لاتقاوم تفرض على سياستك مواقف وبيانات سياسية لاتحبها وفي موضوعنا الذي نناقشه نجد مصداقا لما أقوله في كلام لسياستك يأتي في الثلث الأخير من الصفحة (٧) نفسها اذ تقول: « ان البيريسترويكا قد برهنت على أن حالتنا أصعب مما تصورناها في البداية » . ان جوهر الصعوبة يتمثل في ان الاشتراكية البلشفية هي القمع بعينه ولاشئ آخر غير القمع . يقولون ان السمندر حيوان يعيش في النار ، وأقول ان القمع يعيش في القمع وان الاستبداد يعيش في الاستبداد وان الدكتاتورية تعيش في الدكتاتورية وان ميكروب السل يعيش في المرض . وارجو المعذرة في صراحتي ..

في نهاية الصفحة (٧) يرد الكتاب على من يقول بأن اهداف البيريسترويكا كانت وراء المقترحات السلمية الروسية في المجال الدولي ، يرد عليه بقوله: « ... وهذه مبالغة في تبسيط الأمور فمن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتي يعمل منذ فترة طويلة من أجل السلام والتعاون .. الخ » وأترك تعليقي الى موضع آخر سنلتقي به في بعض صفحات متن الكتاب هذا الجزء أو غيره مما سيأتي .

والصفحة الثامنة تحوي كلام جميل في الوضع الدولي ووجوب قهر الذعر النووي ، وفي نهاية الكلام في ذلك صادفت المراجعة الى حد بعيد اذ تقول: « ... اننا نريد عالما متحررا من الحرب وبدون سباق تسلح ، واسلحة نووية وعنف ، ليس فقط لان هذا وضع افضل لتطورنا الداخلي انه احتياج عالمي موضوعي ينشأ من وقائع ايامنا الحاضرة » . وتأتي العبارة التالية في الثلث الأخير من الصفحة حاسمة الدلالة: « ويبدو أن كل امرئ يوافق على أنه لن يكون هناك منتصر أو خاسر في مثل هذه الحرب . ولن يكون هناك من يبقى حيا » وتقوى هذه الدلالات بعبارة في غاية الروعة في وسط الصفحة (٩) تقول: « ان جميعنا راكب على ظهر سفينة واحدة هي الأرض وعلينا الا نسمح بأن تغرق فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية » . ويستمر الكلام في الوتيرة الجميلة نفسها حتى نهاية الصفحة (١٠) وهي نهاية المقدمة التي عنوانها (الى القارئ) .

لي تعليق عابر مع احترامي لآراء الرئيس غورباتشوف ولكن من زاوية خاصة: ان الذعر النووي يتفاقم يوما بعد يوم ليس فقط لعدم توصل ~~الشرقيين~~ المعسكرين الى حظر الاسلحة النووية وتخريب ترساناتها بل لأن الاحتمال يتزايد بوصول الدول المجنونة الصغيرة وعصابات التخريب والارهاب الى امتلاك مقدار من النوويات والهيدروجينيات في مدى ٥ سنة او ١٠ سنة يكفي لخراب العالم او جانب كبير منه ثم انه يفعل ما هو أخطر من ذلك بكونه سببا في اختلال حسابات الدول الكبيرة وارتباك التدابير اللازمة لحفظها ثم القضاء عليها فالدول الكبيرة مازالت متباينة المواقف في موضوع الارهاب الدولي وتفضل الصداقة مع هذا والعداوة

مع ذلك وموازنات مصالح وخسارات المعسكر المقابل فإرهاب قائم وإرهاب يزول، تفعل فعلها الحاسم في ترك الإرهاب يستشري مع أن علاجه في أول قائمة الأولويات واسهلها في علاقات الدول الكبيرة ويكون عدم القدرة على اتخاذ موقف موحد منها مؤديا بتعذر القدرة على علاج المشكلة من أساسها. إن شكل الإرهاب الدولي هو من أخطر وجوهه ممن علاج الذعر الدولي.

وفيما يلي سيبدأ التعقيب على فصول الكتاب حسب تسلسلها وبمقتضى ما هو مطلوب من تكلف العناء في محاولة اغناء مضمونه على قدر طاقتي في البرهنة و التسبيب بنية خالصة موثوق من أمانتها في تحقيق أي خير عام مقدور عليه.

الفصل الأول

البريسترويكا

- ١ -

أصولها و جوهرها وطابعها الثوري

بعد الأنتهاء من المرور الخاطف بنقاط بارزة من مقدمة الكتاب وقبل الدخول في التعليق على ما يجب التعليق عليه من مواضيع الكتاب نفسه لا بد من القول بأن الكتاب كله وما وراءه من حيثيات الأحداث والايديولوجيات والمواقف وتركيبة القوميات في المجتمع السوفيتي رجوعاً الى تأريخه القديم و نزولاً منه الى عملية ثورة اكتوبر وما صاحبها من خلاف رأى الجهات المشاركة فيها حول وقف تنامي الثورة في التغيير وماكان من فوز اصحاب لينين على البلاغ او تطوير الاتجاه الديمقراطي الأول للثورة الى اتجاه ماركسي يختلف حسب رؤيته القضاء على المشاكل بضربة واحدة وليس على مراحل، كل ذلك وغير ذلك مما يتصل بهذه المواضيع عرضاً و عمقاً من العوامل والمؤثرات أمر ذو خطورة حاسمة في فهم ظاهرة (روسيا السوفيتية) فهماً شاملاً عميقاً يرفع الحجب عن توالي تأريخه على النحو الذي توالى به من اول يوم وصلت فيه السوفيتات الى مواقع السلطة حتى يوم رفع فيه الرفيق غورباتشوف شعاره بوجوب « اعادة البناء » - ثم ان ذلك كله لا يكفي بنفسه لفهم الموضوع من جميع الوجوه فالدولة السوفيتية ما نشأت في فراغ عن حولها ولا بين دول متخلفة ولا حتى بين دول تماثلها في قوة الحضارة و التطور - ثم انها ما وجدت على اديم التاريخ مدفوعة بحكم الاحداث والمستلزمات التي تقود بذاتها خطى المجتمعات في تحاولها مع الدنيا من حولها بحسب موازين الربح والخسارة:

هناك تركيبة دولة القياصرة في روسيا نفسها وعقلياتها « وستعمراتها » الواسعة.
وهناك دول متقدمة تهيمن بالدولة الجديدة او تهيمن بها الدولة الجديدة.
وهناك دول متخلفة وشعوب لم تبلغ بذاتها حد تشكيل دولة.
وهناك « أنجيل » للدولة السوفيتية يصوغ حاضرها ومصيرها وتصرفاتها وفهمها للخير و النافع ومعاني الأشياء في كل ما هو « اجتماعي » - ولا ينقص هذه الحقيقة ان من يطبق الأنجيل الجديد يفسره على هواه او على ما يعتقد انه المصلحة فانه لابد من ان تجري الأمور في ضوء هذا الأنجيل الضليل على نحو من الانحاء.

والقارئ ان يجرب في (امتحان الاحتمالات) أي شأن عن شؤون الدولة السوفيتية فيتصوره على نحو مخالف له كاحتمال ان تكون روسيا مجردة من الامتداد الاسيوي حتى المحيط الهادي فيبني على ذلك مجرى الأحداث اللاحقة لقيام الثورة ولاسيما بعد وقوع الهجوم النازي عليها في الحرب الكونية الثانية و ما عسى كان خليقاً ان يحدث بافتراض انعدام العمق الستراتيجي المتمثل فيما وراء الأورال. أما أنا فأجرب التوقع ثورة اكتوبر بالاختام شيوعي، وكان هذا احتمالاً غير مستبعد بل كان هو الاحتمال الأقرب الى الوقوع في مقدمات الثورة التي لم تكن الشيوعية من اهدافها فان اول نتائج ذلك ألا تقع الحرب الأهلية (الداخلية) ولا حرب التدخل الأجنبي ولا تكون حقبة الستالينية وما بعدها من احقاب الجمود السياسي ولم تكن تتهيأ حاجة الى اعادة البناء» وإنما كان خليقاً بمجرى التاريخ أن يلد مشاكل وعراقيل من نوع آخر هو في اقرب الاحتمال من جنس مشاكل المجتمعات غير الشيوعية. وما قلته هو شيء أقرب الى البديهية منه الى تخمين خيالي بل هو أدنى الى القبول حتى مما قاله سيادة الرئيس غورباتشوف في مقدمة كتابه أنه لو أخذ باقتراحات الاتحاد السوفيتي - في حينه السلام - لأدى الى تطبيع الوضع الدولي [نهاية الصفحة ٧ من الكتاب] .

فالوضع الدولي لا يسهل تطويعه وتطبيعه حتى بافتراض عدم وجود معسكرين ذوي إتجاهين سياسيين مختلفين فكم من حروب ثارت بين الدول قبل وجود الدولة السوفيتية وكم ثار من خلاف وصل الحرب الفعلية بين الدول الشيوعية والى الدولة السوفيتية.. ولست اقصد بهذا التقليل من خطورة رأي الرئيس غورباتشوف فهو رأي جدير بالاحترام ويفيض عن روح عشرية بحب السلام ولكن أردت أن أدافع عن رأي قلته في افتراض وجود روسيا لا شيوعية فلم اجد لذلك سنداً اقوى مما استشهدت به عن مقولة الرئيس غورباتشوف ..

فالفهم الكامل للروافد المتضبة في بوتقة «الدولة السوفيتية» ما بين تأريخية و معاصرة وداخلية وكونية مضافاً اليه تصور مقارب لحقيقة طبيعة «الانسان» فرداً متفرداً وفرداً متشابك الوجود مع بقية المجتمع الذي يعيش فيه، باعتبار الانسان أس الأساس

في كل ما هو تاريخ واجتماع بكل ما فيهما من قبح وجمال وخير وشر وفضيلة و رذيلة وتقدم وتأخر و ... و ... الخ هذا الفهم ضروري جداً لمعرفة أو استكناه «التجربة الشيوعية الرائدة» التي كان من نصيبها أنها إنبعثت في روسيا دون العالمين. بل ان فهم العوامل التي حضرت إحتفال قيام الشيوعية في روسيا ألزم من اللازم كي نملك قبول قولي الآنف في ان ما يعبر عنه «بالنصيب» حدد روسيا مكاناً لقيام الشيوعية فلقد كان من الممكن ان تجري الأمور في ساحة الصراع بين روسيا والمانيا في الحرب الأولى على نحو يجعل من المتعذر حصول بعض الأسباب الحاسمة لسقوط القيصرية - بل انه كان من الممكن ألا يستطيع لينين الوصول الى روسيا أصلاً أو ان يصل بطرق معقدة مطولة تتأخر به عن الوصول في الوقت الملائم فيكون للثورة إتجاه آخر. فالحتمية في قيام الشيوعية سنة ١٩١٧ في روسيا كانت أضعف أسباباً من مقدار الحتمية التي بعثت الثورة الفرنسية «البرجوازية» وهذا التفاوت في مقدار «الحتمية» للثورتين هو بحد ذاته يقدم تفسيراً مقبولاً لفترة الستالينية فانه أسهل على الطابع الاستبدادي على شيء ساقه «النصيب» فيوقفه حسب مشيئته ويحرفه الى غير وجهته. أما الشيء الذي ينبعث بقوة نموه الطبيعي فليس من الهين امالته عن الوجهة التي حددتها طبيعة المنابع والجذور التي تغذيه. ويصح القول هنا ان العوامل الأصيلة التي اخرجت الثورة الفرنسية الى الوجود هي نفسها مهدت السبيل لأختفاء الخزعبلات التي رافقت انبعاثها الأول في وقت قصير نسبياً - بل انه لا يدرك ملاحظة أو على غاية الخطورة في طبيعة قوم اليسار الذي هو المظهر السياسي للنشيط لمعنى أوسع منه يشمله ويشمل غيره من مواقف عدم الرضا بالواقع واعني به «الانتقاد» في اطاره العام فالأنتقاد في جوهره هو رفض الموجود من موقع اللامسئولية فلربما أوغل «المتفرج» في انتقاد صرح شامخ وهو نفسه عاجز عن بناء كوخ لدجاجاته - وقد تناول عابر السبيل رؤساء الدول على عدم اتفاقهم في مسائل الأقتصاد والسياسة و مجازر الأمم بالتجريح والتحريم وهو عاجز عن التوافق مع أفراد أسرته. والثورة في المعتاد تقع على يسار اليسار وهي «انتقاد عنيف رافض رفض الأزالة والنقض لما هو قائم من البنيان السياسي المحرك للأمور». وعلى قدر ما في الثورة من عنف

يكون تبريرها لذاتها وتحريمها لخصمها أمراً خارجاً عن أطار المناقشة ونازلاً منزلة البديهية في نظر القائلين بها فهي في هذا المنظور استلاب كامل من الشعور بالمسؤولية تجاه البناء السياسي الذي تريد هدمه. وأيا يكن تبرير الثورة لذاتها وهما يكن دعاواها في استيعاب الكون وحركة التأريخ ومكونات « الأجتماع » صدوية مجلجلة فأنها بالضرورة وعلى سبيل الحتم تكون طوباوية بشكل مزدوج: فهي طوباوية في تثمينها وتقويمها لخصمها من حيث ان هذا الخصم ليس بالسوء الذي تخزوه اليه: وهي طوباوية في تثمينها وتقويمها لنفسها فهي ليست بالملاح الذي تدعيه - كثيراً ماوجدنا الثورات تعجز عن توفير البصل في السوق وكان قبل الثورة مركوماً لايشتريه أحد. و لم نجد واحدة من الثورات تعترف للناس بأن جهلها في مهنة البقالة هو سبب اختفاء البصل فهي تصر أما بعلم أو بجهل تام. على ان قوى الردة اعداء التقدم والسلام هم سبب هذا الأختفاء وما أكثر ما علقت الثورات ابرياء الناس في حبل المشنقة ستراً لقصورها في تطويع الطهاطم وبيضت اللقلقة ....

وجهة النظر هذه في تبرير معنى « اللامسؤولية » في موقف « الأنتقاد » ليست شجباً لفكرة النقد وانما هي محاولة لفتح العيون على حقيقة خطيرة تختفي من الحسابات بشكل عام. فكما اني لا أشجب وجود البارود في شجبي لأساءة استعماله كذلك لا أقصد من نقدي للمنتقد ان يكف عن الأنتقاد وإلا كان أول واجب اعمله هو أن اكف أنا عن نقد المنتقد.. قلت يكون هناك نقد بناء اذا جهل الناقد هذه الحقيقة: وهي ان عادة النقد خالية من المسؤولية.. ولا يغرنك كثرة مايردده الناس من وجوب التفريق بين النقد البناء والهادم، فاذا لم تتوضح فكرة خلو النقد من المسؤولية سيظل أشد الناقدين هدماً اقواهم ادعاءً في طلب البناء.

كثيرة وكثيرة جداً مقومات الفهم الصحيح للظواهر الأجتماعية بما فيها التأريخ وأحداثها فانه مما يحار فيه الفهم ما يجده من اصرار شعوب وعقائد على ترك الشعر يعو كما يشاء بلا قصة أو ماهو من عادة بعضهم في حك الأنوف بعضها ببعض عند التحية مثلاً. فكيف بالأحداث الجسام المدوية المزلزلة من مثل الثورة الروسية التي بشرت به والتي فعلته في واقع الأمر. فاذا كانت تبرير الذات يحل بالثوري الى حد تصفية زميل الكفاح لغير سبب واضح أو لسبب لا يستوجب غير العقاب أو لشك يثبت فيما بعد أنه باطل وهو موقف عبارة عن الأستلاب من مطلق

التحور بالمسؤولية فكيف يكون حكمه على الخصم الذي تطاله يده. ولما كانت الثورة تمثل الطرف الأقوى من مواقع الانتقاد فهي يكفيها هذا السبب وحده لتخلي نفسها من أية مسؤولية وهي تنتقد وتقبض وتطلق وتحمر وتدمر ... فإذا أضيف إلى هذا السبب الأول سبب آخر وهو أن يمتد بامتداد عنفوان الثورة وهو أنها لا تسمح لأي انسان رفع سلطتها بتوجيه النقد اليها فقد انكشفت سهولة دوامها على تبرير الذات وتقديس ما تفعل وتشجب الدنيا من حولها فيما لا يعجبها من أمورها ... أن انعدام امكانات النقد والمعارضة في البلدان الثائرة بحصر كل وسائل الاعلام في قبضة أجهزة الأمن والقمع والسيطرة يطيل من عمر تراكم السلبيات الى مديات لا يقدرها أحد. فلكي يظل مرفقو هام من مرافق البلد الثائر متخلفاً وفتحتنا يكفي فيه أن يكون واقعاً في حماية شعار مضلل رفعته الثورة في بعض مراحلها ودونما حاجة الى تلفيق أسباب وهمية من قبيل ميل الاستعمار والبرجوازية ووجود حركة ارتدادية بين سواد الناس فأي وسط استعماري برجوازي يضيف ستالين إلا أن تعبده فئات الملايين من مسالمي هذا الكون ثلاثين سنة ؟ وأية قوة شيطانية حملت ماو على اكتشاف جاسوس استعماري في شخص حبيب كفاحه، رئيس جمهورية الصين الشعبية ليوشاوشي ؟ فاذا كانت هذه الكوارث الماحقة وغيرها الثورة الثقافية تنبع بذاتها من رحم الثورات فما الحكمة في الانشغال بالتحري العقيم عن اسباب شيطانية في تفسير امور مرفيرة من مثل هذا المعمل وبوار تلك المزرعة فإن شيطنة ستالين وضلال ماو [في اواخر عمره] بما يضلان من مأتم قومي عالمي حضاري في ضخامة التاريخ نفسه خليقة ان تفشل بها كل العوامل وتبور كل المزارع ولها بعد ذلك فضل قدرة على خلق ما لا يمكن التنبؤ به من جنوف الأباطيل !

الخضار وسائل الاعلام في يد السلطة الثورية وتسييرها لحاجة الناس في البلدان الآخذة بحرية التعبير والارادة جعل كفوف السياسة فيهما متفاوتة الى حد التناقض فقد وجدنا جرجيت يربح الحرب لبلده في مواجهة مع النازية لكنه يخسر معركة الانتخابات خلافاً لكل التوقعات المبنية على ظاهر الأحوال المألوفة. وأستهم فرانكو وتيتو وستالين و ماو وغيرهم من حكام البلدان الدكتاتورية حتى نهاية اعمارهم في دست الحكم على حين سقط نيكسن فيما سمي بفضيحة (واترجيت) التي لم تكن قط بالفضاعة التي أبرزتها بها وسائل الاعلام الأهلية وكاد رونالد ريغان نفسه أن يسقط في (ايران جيت) وكلا الحدثين لا يستطيع أن يتشبث بأي مأوى اعتراض على الحاكم المستبد بأمره و

القابضة على وسائل الأعلام بقبضة قوية في بلده ولو أراد أحد في تلك البلدان بثمن ما دفع أن ينشر ربع صفحة في نقد شيء حكومي استحال ذلك عليه لأحتكار المطابع والتايبرايترات كلها عند طبع حرف واحد مما كتب أو نظم .. والواقع ان حرمان الكتب والتقييد والتهديد بالعقوبة مرصوداً بدوام التعقيبات الحرجة على نطاق واسع وفي جو مجرد عن اية وسيلة لحماية الذات والأنتصاف من الظالم يقتل في اعماق الانسان الاحساس الرافض للظلم والمذلة فيروح يداري نوازعه بالسعي في توفير لقمة العيش وسقف يؤويه ولا يستغرب أن يخلق توالي عشرات السنين في تقييد نظام معين وتكوين ما عداه شعوراً عند الناس بتقبل الواقع على أنه الأحتمال الصالح الوحيد ..

رحلتي مع البيريسترويكا مسبوقة بعشرات السنين في اختبار النظريات والايديولوجيات وعرضها على المنطق الخالص وعلى ما يحصل منها في تطبيقه المجتمعات لها ولقد عودت نفسي أن انظر الى الواقع والى التاريخ على انهما شيء واحد فالفرد الذي اراه بعيني منخرطاً في التفاعل مع المجتمع هو نفسه الذي تبنى النظريات الأجتماعية والفلسفية الأنسانية والاحكام التاريخية على مجمل شأنه فلا انخدع قطعاً بالروايات التي تحولها السياسة ولا بالتجريدات التي تقوم بها الفلسفات عند تناولها للأنسان فكل صورة للأنسان أراها من خلال حيلة المهرة من المنظرين في عرضهم للأجتماع والتاريخ ارفضها رفضاً قاطعاً اذا كانت مخالفة لمشهودات .

فالعبارات التي عنونت بها كتاب من قبل المدح الذي له غرض سياسي عند كلامه عن الناس هي مثل قوله : الجماهير العريضة الطيبة -- عامة الناس المحبة للخير والسلام ليفصلها عن الأشرار صباحي الدماء - طالبي الحرب والدمار من البرجوازية !! هراء محض فأنا أعرف وأنت تعرف هؤلاء الطيبين على حقيقتهم أو بشكل مقارب للحقيقة فلا يمتازون عن غيرهم إلا بمقدار ما يمنعهم فقرهم وعسكنتهم وقلة استطاعتهم من الأيغال في الأثرة والأنانية مع وجود تفاوت في الطبائع بين الأفراد سواء كانوا تجاراً او بقالين أو حمالين أو فلاحين . ومن البديهي ان يكون المتحضرون ذوو التربية السليمة في البلدان الراقية اكثر تمسكاً بالتصرف السليم و مراعاة القوانين والمصالح من جماهير الشعوب المتخلفة .

لقد حدثت مغالاة شديدة من قبل سياسيي اليسار في اعتبار التمايز الطبقي حداً فاصلاً بين الصلاح والفساد حتى كان المنتمي الى طبقة (هو من فصيلة غير

فصيلة الشخص المنتمي الى طبقة اخرى ... ولم يكن هذا واقعاً في الماضي ولا هو واقع في الحاضر الا بالحاح من منظري السياسة وموجيه / فالطبقات متداخلة و بينها حاشية عريضة من المصالح المشتركة التي لا تتقاطع الا بالقوة القاهرة. و الصورة المكفهرة التي يرسمها منظرو السياسة للمجتمع الطبقي لا توجد إلا على الورق. وعلى الجانب الآخر لا توجد صورة مشرقة للمجتمع اللاطبقي في واقع الحال الا بتلفيق من الدعاة والمنظرين بل ان جبروت الشخص الحزبي أو من اجهزة الأمن في المجتمعات اللاطبقية يتجاوز بمراتب كثيرة ان سلطات قد يكون في حوزة الرجل الثري في اي بلد بالعالم.

اقول هذا وغيره مما ليست له اهمية ملحوظة كي ترتفع عن نظر الرائي والقارئ الصورة السحرية التي ترسم بها المجتمعات اللاطبقية والصورة السوداء للمجتمعات الطبقية / حتى ان مصطلح « اللاطبقية » بحد ذاته فيه كثير جداً من مجاملة الذات ذلك ان التفاوت في مقادير الهبوط والصعود عن مستوى الناس وسوء الأحوال لاسيما ما كان منها متصلاً بالحريات العامة في اللاطبقيات أقسى وأفدح من اوساط المجتمعات الطبقية وانزل بلدان قمة الحضارة من مثل الدول الاسكندنافية التي لا تقبل اي وجه من وجوه المقارنة. والضرورة تقضي أن تعني اللاطبقية المفروضة بالقوة مجرد حذف التملك الفردي وقدرة الأفراد أن يكونوا اصحاب مشاريع تقابله اهمال واثقال من فقدان حرية الارادة و التعبير عن الذات منضماً عن فقدان الرفاه الحقيقي. صحيح انه بذلت جهود كثيرة فيما سبق من الزمان لكيلا تكون الاوضاع بهذا السوء بل ان تكون مريحة مقبولة وكان من الابواب التقدم المبني على الجهد والابداع الفرديين و حصرها في يد المنظرين الموجهين الذين اصبحوا كتلاً صماء من البيروقراطية المتحجرة وتابوا باحدار المستهدأ على توزيع الخير والتقدم ، الرفاه من خلال قطارة الجيل الثورة وما يتفتق عنه ادمغتهم المحولبة من حتوف التأويل جعل التقدم عملية رهيبة التحقيق.

في الفصل الاول من كتاب البيريسترويكا عنوان من كلمات في وسط الصفحة ١٣ انه

وبعد أسطر مما سبقه عنوان جديد هو :

البيريسترويكا - ضرورة ملحة

ويجلب النظر ، بل يطلب التعليق ، عبارة مختصرة من اوائل كلمات الرئيس غورباتشوف تقول :

«فالبيريسترويكا ليست نزوة لدى بعض الأفراد الطموحين او مجموعة من الزعماء» وهو كلام على درجة عالية من الصحة وتحتمل زيادة تأكيد أيضا كما أكد الرئيس غورباتشوف نفسه بعد أسطر قليلة من : « ان البيريسترويكا ضرورة ملحة نشأت من عمليات التطور العميقة في مجتمعنا الأشتراكي . فهذا المجتمع ناضج للتغيير - » ولكن يكون كلام الرئيس غورباتشوف على اكثر ما يكون من الوضوح ارى ان أعلق عليه بما يلي :

١- ان البيريسترويكا ليست نزوة رجال طموحين ولكنها في الوقت نفسه ليست حركة انبثاقية من بين جموع الشعب فهي بالتأكيد رأي راوه رجال قيادة الحزب و الدولة وسط رؤوس فعل قوية من المتمسكين بالأساليب المتقوقعة ولم يكن لها احتمال آخر بان تكون طلباً من الجماهير لوضوح الحال فالجماهير لم تتعود ولم تتجرأ قط على طلب شيء بارادتها هي . وما كان لها ان تسلم من معارضة المتقوقعين و الحزبيين و المستفيدين من حالة فقدان الارادة الشعبية .

٢- انها ضرورة ملحة -- وان المجتمع السوفيتي ناضج للتغيير . مع ملاحظة ان هذه الضرورة هي أشبه بضرورة عملية جراحية تستدعيها حالة مرضية وليست ترفاً اختيارياً يضاف الى الترف المتراكم . والمجتمع السوفيتي ناضج للتغيير نتيجة تراكم السوء والتخلف عن روح العصر وتراجع القدرة الأنتاجية وفقدان الحماية القانونية وانعدام القدرة عند عامة الناس لرفض ما هو سيء وطلب ما هو مرغوب . ولو بقي بريجنيف وما يمثله عن انضج سياسي وايديولوجي متحجر لبقيت الضرورة الملحة ضرورة بلا حل و بقي المجتمع السوفيتي ناضجاً للتغير بلا تغيير فانه من السوابق التاريخية المؤكدة المعروفة أن يوجد شلل سيادتك تامة لهم الرؤية ولهم الجرأة للاقدام على اجراء العملية الجراحية وان كنا لا ندري حتى الساعة مقدار احتمال النجاح والفشل في هذه المحاولة الرائعة فالمعادلة التي تنهض عليها العملية ذات مجهولات ثلاثة أساسية :

١- ما مقدار المدركين الجديين في القيادة والحزب بالقياس الى القوى المعارضة للتغيير .

٢- ما مقدار وضوح الرؤية عند أنصار التغيير في الذي يجب أن يؤخذ به من الأسس الجديدة للتفكير والبرمجة التي تتطلبها طبيعة العملية المحاطة بالمصاعب الخطيرة ؟

٣- ما مقدار المسموح به في مشاركة الجماهير بوصفهم سيراً احراراً يرسمون مصائرهم ؟ وهل هم احرار حقاً في ان يختاروا طريقة حياتهم ؟

هذه الأسئلة خليقة أن تقودنا في سياق هذا التعليق مراراً .

في اوائل الصفحة ١٤ من الكتاب يقول الرئيس غورباتشوف مايلي :

« الاتحاد السوفيتي دولة فتية لا مثيل لها --- فخلال العقود السبعة الماضية اجتازت بلادنا تاريخاً يعادل قروناً . وقامت واحدة من اقوى الدول في العالم لتحل محل الأمبراطورية الروسية المتخلفة شبه الأقطاعية وشبه المستعمرة لديها فوق انتاج ضخمة وقدرة فكرية جبارة وثقافة رفيعة ومجتمعاً فريداً ورعاية اجتماعية راسخة لـ ٢٨٠ مليوناً --- »

أستسمح الرئيس غورباتشوف في أن أكون صريحاً مع نفسي وأنا مترسل مع أفكار البيرسيستروبكا :

ان الدولة السوفيتية فتية فقط في عمرها الشيوعي وكانت النازية الكافرة بعمر لم يتجاوز بضع عشرة سنة لكن روسيا القيصرية دولة ممتدة العمر الى ماضٍ غير سحيق ولا فقير في أقيسة العصور التي حكمت فيها . ففي اواسط السبعينات ، مثلاً ، وجدت يوصفي وكيلاً للمجمع العلمي الكردي ببغداد الى الحضور في الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية والخمسين للأكاديمية السوفيتية فكانت آنذاك قد مضت قرنة وتسعين سنة من القرنين و النصف المحتفل به واقعاً في الحكم القيصري ، وليس ذلك بالأمد القصير اذا أخذنا قياس الأمور في الدول التي لم تؤسس اكاديمية الا في القرن العشرين . و وجدت في بعض الأفلام الروسية ظهوراً وقلاعاً للاقطاع الروسي في القرن السادس عشر لم تزل بضخامتها وديكوراتها وطرزبنائها وجمال ابهائها وسواء قاعاتها وقراسيم احتفالاتها عصية على قدرة كثير من شعوب اليوم في ان تبني مثلها بتكنيكها وبازرتها وامكاناتها الحضارية -- ويوم غزا نابليون روسيا في اوائل القرن التاسع عشر كانت موسكو تضم مدينة القياب الذهبية --- ومراكز الحضارة الكبيرة المتمثلة في المدن الضخمة كانت منذ بضعة قرون مظهراً بارزاً من مظاهر الوجود الروسي -- وبالرجوع الى الخرائط القديمة نسبياً نجد شبكة خطوط (كوامبلات الحديدية في روسيا واحدة من الشبكات الملحوظة في دنيانا وتم ربط اوربا بالمحيط الهادي عبر سيبريا بواحد من أطول خطوط السكك بل اطولها على الأطلاقه في بعض عهود الحكم القيصري .

ولم تكن شعبية روسيا بواحدة من دول العالم الخمس الكبرى في القرن الماضي عبثاً فقد كفى أنها كانت تملك ثلاثة أساطيل مستقلة : واحد في الشرق الأقصى وواحد في البلطيق وثالث في البحر الأسود - وتطول قائمة الأسماء البارزة من رجالات الروس في كل حقول المعرفة على العهد القيصري حتى انني أجد في بعض كتبكم تقتصرون على ذكر علماء الروس القيصريين في الفيزياء والنبات وغيرها من العلوم التجريبية ونادراً ما تذكرون غيرهم من علماء الأمم الأخرى إلا ما كان فيهم من قبيل غاليليو أو نيوتن او داروين او اينشتاين من الرواد الذين لا يصح اهمال أسمائهم - وكفى في هذا الصدد أن حفيرة الثورة البلشفية كانت ولبون عامل بروليتاري منضبط في بتروغراد وموسكو . ومن المفارقات التي لا يمكن اغفالها وهي مفارقة صارخة اعتبار في سبب اغفالها من قبل عامة المعنيين بحيثيات الأحداث في دنيانا ذلك أن التقدم الحضاري الذي كان متحققاً وملموساً في روسيا عبر قرون متوالية مكتنفاً إلوان من القصور والنقص في الادارة والتربية وأشكال من الفساد الاجتماعي والسياسي خلق الظرف الذي تكررت به محاولات التغيير و ابرزها في عهد ما قبل الثورة الكبيرة كانت ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . والنجاح الذي حصل لثورة اكتوبر نفسها كان حصيلة مزيج من الحضارة ومن الهزيمة العسكرية . فالحضارة في كل الانتفاضات الروسية سبب دائم وثابت وبدونها ما كان في الامكان ان تحدث واحدة منها جديرة بأن تسمى « أنتفاضة » أو ثورة — وبشكل معاكس نجد السبب في قيام « إعادة البناء - البيريسترويكا » هو تراكم السلبيات وشلل القاعدة الجماهيرية عن الأبداع وتحجر العقلية القائدة على قوالب جامدة فاذا كانت الثورات القديمة عبارة عن انتفاضة جزء من البلاد ضد الأقلية الحاكمة فإن البيريسترويكا هي انتفاضة بعض الجسم الواحد ضد كل الجسم وهي اقرب معنى للحقيقة ! بمثابة انفجار دمل من الداخل ولكن يقوم طبيب جراح بمثله « غورباتشوف » ولم يكن منظوراً [illegible] بأن التصحيح أو « اعادة البناء » أو تغيير الدول من خارج الهيكل الثوري الموروث من نحو سبعين سنة فقد كان اول شيء وأهم شيء وكلة الثورة البلشفية لدوامها و استحالة الارتداد عليها هو انها جعلت الشعب كله جزء من نفسها غير منفصل عنها ولا قادر على الانفكاك عنها وأستنفدت في هذا كل وسيلة متاحة للضبط و الهيمنة حتى استطاعت أن تمسح من النفوس مجرد التفكير في عدم الرضوخ . ويجهزني في هذه المناسبة شيء قلته قبل عشرين سنة وردته بعد ذلك مرات ومرات أقتضتها الدواعي واعيده هنا تحت عنوان :

سالونة قصيرة

كنت قرأت كتاب لينين «State and Revolution» «الدولة والثورة» منذ سنوات جلب نظري عندئذ في رد الأسباب لأي شيء يقع في ساحة الاجتماع الى «الاستغلال» فقد قال ان السبب الوحيد الذي دعا الى تشكيل الدولة هو ما ارادته الطبقة المستغلة «بكسر الفتح» لأداة استغلالها فابتدعت نظام الحكم ورتبت المحاكم والقوانين والسجون ... الخ ويوم يختفي الاستغلال في الحكم الشيوعي تتلاشى الحكومة من ذات نفسها بسبب زوال العلة الوحيدة لوجودها وهو الاستغلال. فقلت انه من غرائب الصادفات ان يجري التاريخ على خط معاكس تماماً لما قاله لينين فكأنه - اي التاريخ - قد آلى على نفسه محاربة رأيه ذلك. فاذا كان في الامكان تشبيه الدول القائمة على اساس بقاء الطبقات والاستغلالات بفاكهة فان حكوماتها هي قشرتها وبعدها يأتي لب الفاكهة وهو الشعب كاما الدولة المبنية على أساس الماركسية فهي أشبه باللهانة كلما نزعت ورقها وجدت تحتة ورقاً قبله حتى تأتي على اوراقه اللهانة كلها واذا بالشعب كله هو ورقاً اي حكومة اي ان الشعب اختفى وليست السلطة. ففي روسيا السوفيتية لم يكن للشعب وجود مستقل عن السلطة والحزب ولينين وماركس حتى يستطلع المفكر في اعادة البناء او اي شيء آخر غير الواجب الموكول اليه. فانا لا يستقيم لي بسهولة شعبية البيريسترويكا بثورة كما يصفها الرئيس غورباتشوف فالمعتاد في التداول السياسي ان نشهد الثورة التي تفح ثائرة بعد الثورة الأولى بالردة أو الانتقاض فليس لي مصطلح جاهز لهذه الظاهرة إلا ما قلت من أنها «تفجير دمل». أما أن يقال ان العملية كلها هي الوسعة والشمول بحيث أنها تستدعي مشاركة الجماهير العريضة في إنجاحها فإن ذلك يدل فقط على أن الدمل انتفاخ كبير للغاية يختزن مقداراً هائلاً من الجراثيم القيح. ثم ان القائمين بها انفسهم قطعوا السبيل في واقع الأمر على من يحاول تسميتها بالثورة فهم على حسب ما يظهر من كلام الرئيس غورباتشوف يستعينون بالماركسية واللينينية ومخزون انجازات الثورة البلشفية لمعالجة الخلل الذي إنبعث ابتداء من هذه التطبيقات والنظريات فهي في أحسن ما يمكن من تفسير لها أن تشبه بمداواة المعلول عن سبيل الأجزاء الصالحة الشافية من الدواء المركب الذي

كان هو العلة نفسها فهي لا تخرج عن معنى تفجير الدمل بحال من الأحوال ولا أرى وجهاً لتسميتها بالثورة . وما كان هذا التعليق مني إلا انسياقاً مع منطق الأشياء والمسميات بصرف النظر عما يكون اولاً يكون من تأثيره في الرأي المتولد من طبيعة البيريسترويكا فالمهم ان تنجح العملية الجراحية فاذا نجحت لم يكن لتسميتها بالثورة اي ضرر. إلا أن للمسألة مكموناً خفياً لا يمكن اغفاله وسيجعل عمله مهما تجاهلناه أو جهلناه . واستعير من الفيزياء مثالاً للتوضيح : فلقد كان القدماء يقولون أن الطبيعة من حولنا تتكون من العناصر الأربعة التي هي الماء والنار والهواء والتراب، وكان الفلاح في القديم ومتى يومه الراهن لم يدرك مسألة العناصر الاربعة فضلاً عن إدراك خطئها، ومع هذا ظل يفلح ويبذر ويحصد بنجاح و كذلك نعمل جميعاً في السوق والشارع والمعمل وفي المقاهي والفنادق والمطاعم ومطابخ البيوت دون ان نفكر في مسألة هذه العناصر الأربعة أو المائة والأربعة . وكل المسألة لا تدوم لها السلامة اذا تسللت فكرة العناصر الأربعة الى اذهان العلماء الفيزياء والكيمياء على انها هي الحقيقة لأن عوالم بأسرها في أرضنا تتبخر بدءاً اذا اخطأ علماء الذرة في تعداد العناصر - وليس شأن تسمية البيريسترويكا بالثورة ومحاولة ايجاد العلاج لها من النصوص اللينينية والماركسية من قبل القائمين بأمرها أقل ضرراً من خطأ علماء الذرة في شأن العناصر : أنا وأنت ايها القارئ وخبراء السوق والشارع نزدد ونهلل بأن البيريسترويكا ثورة وترياقها جاهز من مقولات لينين وبقية عمالقة الماركسية فلا يحصل من ذلك ضرر ينكر وكل اذا تراءى للقائمين بإعادة البناء ان علاج الفشل في المزارع التعاونية يكون بالإكثار منها وبالترويج لها ومنع الفلاح من الاستقلال بمزرعته فذلك كارثة لها نتائج ماحقة وأكثرها حقاً نتيجتان مميتتان أولاهما أن تدارك الفشل بالعلاج الذي كان هو سبب الفشل يؤول الى مضاعفة الفشل وزيادة الخراب ... والنتيجة

الأخرى هي ان الدوام على متابعة الطريقة الفاشلة هي في أسلم عواقبها بالنسبة للقائمين باعادة البناء أن يحل جمود وتحجر جديدان يكون موقع القائمين باعادة البناء فيهما كموقع بريجنيف وسائر أبطال الجمود في حقبة ما بعد الستالينية، يرددون المفاهيم والشعارات الجوفاء و ينمحون مثل بريجنيف بالسلطة والأبهة - وتحصل الخيبة التي هي أمرّ من الخيبة الأولى هذا بفرض أن القائمين باعادة البناء أستطاعوا البقاء ~~استطاعوا البقاء~~ في مركز القيادة ولكن ~~اغلب~~ الأحتمال الغالب أن اناساً من صميم التحجر يرجعون الى السلطة وفي يدهم البرهان الساطع على ان دعاوى التصحيح وإعادة البناء وسائل شيطانية اقحمت على دنيا الثورة الأصيلة التي ما جاءت الا لتثبيت «دكتاتورية البروليتاريا» وتنقية الأسلوب الثوري من كل الشوائب البرجوازية والارتدادية المتمثلة في هرأات الديمقراطية - ولا أذهب الى الأحتمال الآخر وهو قيام الجماهير العريضة بوجه التحجر الجديد المتولد من اعادة البناء نفسها فذلك شيء قهارى وجوده هو (وجود بالقوة Potential) أما أن يثبت نفسه كعامل حاسم في التغيير فهو احتمال لم يزل بعيداً بعد عملية الطحن والتهرئة التي دامت من سنة ١٩١٧ حتى بدايات البيريسترويكا - أن الفرد الروسي والجمهور الروسي، في مظهر شديد الوضوح، ينتظر «سفينة نوح» وطنية تنقذه من الطوفان، و فقد القدرة على مجرد الأنشغال بأوهام (انقاذ الذات - بجهد ذاتي) - مع الاعتذار لما تفضل به الرئيس غورباتشوف في بعض كلامه انه لا توجد سفينة نوح ثانية فقد كان كلامه في وادي السياسة الدولية ومخاطر الأسلحة النووية ـــ فالروس وكثير غيرهم الروس في البلدان هذا العالم ينتظرون نوحا أو هم (بانتظار جودو) ـــ

بعد الكلام المقتبس من الكتاب ، والتعليق عليه فيما مضى من سطور يقول الرئيس غورباتشوف في الصفحة ١٤ نفسها مايلي :

« ان ما سبق قوله هو الواقع الفعلي ، والحقيقة الأكيدة ، والتاج الواضح لعمل أجيال عديدة من شعبنا ومن الواضح أن تقدم بلادنا غدا ممكناً فقط بفضل الثورة . وهو نتاج للثورة . انه ثمرة الأشتراكية ، باعتبارها النظام الاجتماعي الجديد ، ونتيجة الخيار التاريخي لشعبنا . انه يستند الى مآثر آبائنا و أجدادنا وملايين الشعب العامل - من العمال والفلاحين و المثقفين - الذين اخذوا على عاتقهم منذ سبعين عاما مضت المسؤولية المباشرة عن مستقبل بلادهم » .

هذا الكلام الذي يتفضل به الرئيس غورباتشوف باخلاص شديد هو المنتظر أن يقال - باخلاص أيضاً في مثل موقفه ، وكلنا في سعة من أمرنا فلا مسؤوليات رسمية أو رئاسية أو حزبية أو كونية او شرقية او سطرية تشغلنا عن التطلع الى ما وراء الكلمات الجميلة النبيلة من حقائق . ومهما كيف من شأن تعليقي عليه فلن يكون منه ضرر لأنه صادر بالأصل من محض حبي له وحرصي على نجاحه . واقول من باب التوضيح انه اذا قال شخص بأن الارض التي يقف عليها مزيج من الحديد والخارصين والكاربون فوجدت أنا أنها مزيج من الرمل و الفضة و الصفور فلن يحصل من ذلك توهين لموقفه فسيظل منتصباً على العناصر التي اكتشفتها انا مثل ما كان من انتصابه على العناصر التي توهمها هو .

تعليقي على نقاط من الفقرة المنقولة اعلاه وعلى شيء ورد في الفقرة التي قبلها يتركز فيما يلي :

① ماجاء في الفقرة التي قبلها من ان الاتحاد السوفيتي اجتاز خلال سبعين سنة تاريخاً يعادل قرونا .

② ان تقدم روسيا غدا ممكناً بفضل الثورة فهو نتاجها وثمرة الأشتراكية .

③ الأشتراكية كنظام اجتماعي جديد هي الخيار التاريخي لشعوب الاتحاد السوفيتي .

④ ان هذا التقدم يستند الى مآثر الأباء و الأجداد وملايين الشعب العامل من

ضد العمال والفلاحين والمثقفين الذين اخذوا على عاتقهم منذ سبعين سنة المسؤولية المباشرة عن مستقبل بلادهم .

فيما يخص الفقرة الأولى فانها تتسم بقابلية هائلة للاتساع فلا بد من اختصار القول فيها الى أقصى حد ممكن ففيها طاقة كبرى لا يدري أحد كيف يفصلها عما حصل في السوفيات كي يسترسل الكلام على شكل مفتوح فيما هو تقدم وما هو تأخر ومن الذي قدم ومن الذي أخر ذلك أن حوالي نصف الزمان بين قيام الثورة في ١٩١٧ وبين تأليف الرئيس غورباتشوف للكتابة «بيريسترويكا» هو فترة الستالينية وفيها حصل ما يمكن أن يقال انه أختزال القرون الى عقود وتسنى للاتحاد السوفيتي أن يكون معادلاً لأمريكا في الوزن الدولي ثم بسط الهيمنة الروسية على اوروبا الشرقية بما جعلها حزاماً للأمان الروسي وضماناً لدوام الشيوعية ، ولما كان الاجماع شبه منعقد على أن ستالين كان مجرماً فلكي يمكن اشراك الشعب السوفيتي والايديولوجية الأشتراكية في أفعال اختزال القرون الى عقود وجب اشراكهما في جرائم ستالين كي يكونا شريكين لا فيما هو صالح . أما اذا تفرد ستالين بالأجرام فمن حقه أن يتفرد بفضل أختزال الزمن أيضاً لأنه هو الذي اختزل . وليس مقبولاً من أحد أن يستعمل مهارته في التأويل والتلاعب بالكلام ليصور الحالة في فترة الستالينية على أن شيطاناً جبار أعن جبابرة الشر كان مسيطراً على جهاز جبار من جبابرة الخير يقلب بزور الشيطان الى زهور ورياحين وألوان قوس القزح فذلك عبث صبياني لا يقوله عن جاوز عمر المراهقة . واعتذر من الرئيس غورباتشوف عن كلام تفرضه فداحة المقارنات .

الأختزال الحقيقي لفترات الزمن هو الأختزال اللائق ببراعة فكرة الأختزال . فاليابان اختزلت قروناً عدة في زمن قياسي بلا عنف ولا تشغير ولا تصفيات ولا معسكرات المسخرين المرشحين للزوال التدريجي كلما كان جارياً في زمن ستالين وقد قرأت في ذلك وما يماثله أشياء هائلة في اعداد من NewTimes و MOSCOW NEWS و مجلات أخرى تصدر في عهد الجلاسنوست . ومن ثمار الأختزال الصحي انه لا يخلق نتائج سلبية هي بنت القهر والاعتمات المهاجب للأختزال الجبري ولعل من الجائز أن اقدم مثالاً لما يمكن أن يفعله سيطرة الارادة الواحدة على مصير شعب بأسره فقد استطاع هتلر خلال اقل من ست سنين ان يجعل من المانيا قوة حربية اولى

في الدنيا كلها ويجعلها ترسانة للأسلحة ويحيل شعبها الى ما عرفناه من شأنه بما لا حاجة بنا الى كلام زائد. ولا نظلم التاريخ أذا قلنا ان هذا الشرير لم يلجأ الى أساليب ستالين في الحل المسخر [حدث التسخير في سنوات الحرب مع الأسرى غير الألمان] والتهجير بالجملة وتعريض ملايين الفلاحين الى الموت ولا تسبب في تدني مستوى المعيشة بل أنه أحدث في كفاحه الشرير ما هو انتعاش. وليس ينهض سببا مزيلا للعجب مما حققه هتلر قول القائلين بأن الامبريالية وقوى الشر والشياطين الأنس زودوا هتلر بأدواته السحرية فالواقع هو أن فرنسا كانت في حالة من الذعر ألجأتها الى بناء خط ماجينو درءاً للخطر الهتلري الماحق ثم لم يفدها ماجينو بشيء... وسيأتي الكلام لاحقاً. وبالضرورة عن فترة (ميونيخ) وانبعاث الحرب بعد اتفاقية ستالين وهتلر مباشرة.

والكلام في اختزال الزمن يختلط بالضرورة مع الكلام في الفترة التي بعدها وهي ان تقدم روسيا غدا ممكناً بفضل الثورة فكلاهما متقدم ومتقدم بالميم ستالين وهتلر سيان ومتقدم بالميم الستاليني. ولا بد هنا من استعمال منتهى الدقة في التقويم والتثمين ورد الشيء الى أسبابه الحقيقية وقد يكون مما يساعد على انكشاف الحقيقة في التقدم والتأخر ان بلاداً كثيرة في اوروبا لا تملك عشر ما تملكه أوطان الدولة السوفيتية من موارد طبيعية تقدمت مدنيات هائلة في الحضارة والعلم والرخاء والديمقراطية وكل ما هو راحة وامان وضمان بلا ثورة ولا عنف ولا قطرة دم ولا حاجة الى تبرير الذات في مقارفة الشر وهتك الحريات وكتم الأنفاس. فالقول بأن تقدم السوفيت ما كان ليمكن ان يقع إلا بالوسائل التي استعملها ستالين هو مردود بالبداهة لا لأنه يبرر جرائمه فقط بل لأنه قول يمشي باتجاه معاكس للحقيقة فالواقع هو أن التقدم الذي حصل في روسيا كان برغم وسائل ستالين لا بفضلها وسينكشف ذلك أكثر فيما يلي من كلام:

أن لنا في القياس المقارن للتقدم الذي يحصل في هذا البلد أو ذاك معياراً لا يخطئ. وفي حالة الثورة التي هي حالة متميزة من كل وجه عن احوال البلدان التي عاشت بلا طفرة ولا زعازع كيف التوصل بسهولة الى ما للثورة وما عليها لأن مثال فريد محدد لا تختلط اهوامشها بهوامش غيرها. فاذا حققت تقدماً في مرفق الكهرباء ولم يحصل مثله في بلاد اخرى كان الفضل فيه يعود الى الثورة بلا جدال أما اذا كان تقدم مثله حصل بلا ثورة واراقة دم ومصادرة حريات في بلاد اخرى فلا تكون الثورة حققت شيئاً خارقاً ولا مألوفاً بل انها مدينة فيما حققته بالثمن الباهظ الذي استوفته من دماء الناس وحريتهم وأعمارهم وكرامتهم. فإذا كان ما تحقق من تقدم في

بلاد اخرى اكثر مما حققته الثورة يكون التقدم في البلد الثائر قد تحقق برغم الثورة لا بفضلها لأنه من البديهي ان تقدما اكثر كان يحصل بلا ثورة قياساً على البلدان التي لم تثر. اما فشل المرافق في البلد الثائر فانه محسوب على الثورة بلا تأويل اذا كانت مرافق مماثلة في البلدان غير الثائرة لم تفشل. واذكر بالمناسبة انى كنت في سنة ١٩٦٦ استمع الى الخطاب السنوي الذي كان يلقيه رئيس بلد ثائر في ذكرى ثورته فسمعته يقول بصراحة مشوبة بنوع من الفخر في صراحته أن هناك ناساً يروجون الشائعات حول وجود أزمة سكن في بلدنا فأقول لهم أن في البلد أزمة سكن فأنا لا أملك عملة صعبة أشتري بها الأسمنت والحديد فكيف أتغلب على الأزمة ؟ فقلت مع نفسي بصوت مسموع : يا سيدي هل ثرت حتى تبشرني بعد ١٤ سنة من قيام الثورة بأنه لا يوجد حل لأزمة السكن ؟ ألم يكن من الأسلم أن نترك المجال للأزمة كي تنشأ بلا ثورة ؟ مع العلم بانه لم تكن توجد أزمة سكن في ذلك البلد قبل الثورة !!

ارجع الى الموضوع الأصلي فأقول ان الذي حققه ستالين ما كان يمكن ان يحققه إلا بالأسلوب اللاانساني الذي اتبعه فانه بعد أن أشاع الارهاب وأوغل في التصفيات وشكم تأريخ السوفيات فجمع سيور شكائمه في قبضته الحديدية لم تكن قد بقيت باحد قدرة على العطاء المبدئي كي تتجمع المهارات في عمل خلاق فكان لابد لستالين من استهلاك أقصى العنف لكي يحمل الذي كان من الممكن أن يحمله شعب غير مسخر في يسر وبشكل طبيعي . ورب قائل يقول انه لم يكن له خيار فيما فعل بسبب جهل الشعب الروسي فاقول له : هل كان مناضلو الصف الأول ورفاق كفاحه في الثورة البلشفية جهلاء حتى يقضي على جلهم إن لم أقل كلهم ؟ ألم يكن غير القتل وسيلة لتحييد الأشخاص ودرء الأذى المحتمل عنهم ؟ انا لسنا بصدد تحليل نفسية ستالين لندرك ما الذي حمله على اشتهاء تعذيب الرفاق وتصفيتهم فتلك وظيفة علماء النفس ولسنا كذلك مطالبين بكتناه ما كان محتملاً ان يحدث لو لم يوجد ستالين او لم يصل الى الهيمنة وان كنا نملك الحق في القول بان شواهد التأريخ القديم والحديث وحكم العقل والمنطق تملي علينا حكمها بتصديق من يرى انه كان في الامكان ان تكون الأمور اصلح والتقدم اكثر والأمات أوفر والعدل ارسخ وكل شيء اجمل واكمل في غياب الدكتاتورية . أما وقد ابت الدكتاتورية الستالينية ان تختفي وأبت ان تكون اقل قسوة فتصرف ستالين في ممارسة طغيانه بالكثير مما يسمح به الملوك الالهيون فقد هبطت الارادة الشعبية الى مستوى الرق والقنانة بل جاوزتها

في الهبوط بما يجعل الجماهير أكثر رضوخاً من العبيد وأطوع منهم في تأليه سيدهم.
ومن مضاديق ما نقوله هنا هو أن الملايين المملينة من مناضلي الحزب على نطاق العالم عبدت ستالين أكثر من ربع قرن ولم تزل بقيتهم باقية ولها الجرأة في أن تعلن رأيها. ومثال ذلك انى قرأت في بعض اعداد NEW TIMES أو MOSCOW NEWS الصادرة في هذه السنة رداً من مواطن سوفيتي على شخص من المانيا الشرقية يرى اعمال ستالين بأن من يحمل اوصليت لابد له من كسر البيض فيقول له السوفيتي: هذا الكلام جميل شريطة ألا تكلون أنت الأوصليت... فأقول مع هذا ان الفارق كبير بين كسر البيض وقطع رقبة البريء.

أنا يا سيدي الرئيس فوربا تشوف لست خيالياً في آرائي السياسية فانا فيها واقعي قدر كوني انظر الى الأحداث بعين انسان يفرح ويتألم لأموال الدنيا بحسب طبائعها فلا اغمض عيني عن ضحية ذهبت حياتها هدراً بلا ضرورة ومنذ حوالي ثلاثين سنة اقول وأردد انى أرضى من الحاكم بأمره في عالمنا الثالث ان يفعل ما يراه كفيلاً باداوة حكمه ومجده ومزاجه فاذا احتاج الى عشر ضحايا للتخويف فليقتل عشراً ولا يقفز الى خمسين. واذا وجد في سجن المناضلين أماناً لنفس فليسجن بلا تعذيب أو قتل. وكلنا دقيقاً في تحديد هدفه من القتل والسجن والتشريد وهو سلامته ودوام ربوبيته فلا يقتل رغبة في القتل ولا يسجن عراكاً بأقلاق الناس. وفي تاريخنا الأسطوري حكاية تقول ان أحد الشاهات نبتت له بفعل الشيطان حية على كل من كتفيه والحيتان تطلبان الغذاء من مخ شابين في كل يوم... وهكذا الى نهاية الحكاية التي تنتهي بالثورة عليه في يوم سماه الناس «نوروز» نحتفل به حتى يومنا هذا ونعم ما نفعل... فأنا اقول لروح ستالين ومن على شاكلته: أذبح في كل يوم شاباً او شابين تدهن بمخهما كتفيك أذا اعوزتك الحيتان ولكن لا تذبح بدلك لاشيء عشرين رعاك الله وادام مجدك في الخالدين... فاذا اهتديت يا بديل ستالين من حكام العالم الثالث الى عدم جدوى تدهين الكتفين بالمخ الآدمي فادهنه بمخ الدجاج... فالمجرمون من بني البشر انماط لاتعد من مراتب القسوة والوحشية وكان في بعض القرى بمنطقتي سفاح صغير قبل حوالي ٦٠-٧٠ سنة يسرف في القتل الذي لا جدوى منه اسمه (المختار آري) ولم يزل مذكوراً حتى يومنا

هذا فسأله احدهم ما الذي يدفعه الى القتل من غير داع فقال: ان ~~التلذذ~~ رؤية الضحية وهو يلبط بيديه وقدميه حتى تشل حركته. فلربما كان ستالين واحداً بمنظر هؤلاء المفتونين بالأمان الذي يتولد من موت الآخرين فالميت لا يضر... ان ما يتم من الأعمال وفق رغبة متفوقة دون ان يكون للناس رأي فيه يجب ان يحسب له وعليه وفي ذلك فائدة ادبية للناس فهم مهما عزون اليهم أعمالاً بل بطولات لم تنع برغبتهم لا يستفيدون منها شيئاً. ولما كانت احداث التاريخ في اغلبها بعيدة من الأنظار فان تغريب الناس من قبحها يثقل كفتهم بما لا يسرق ولقد كتبت منذ أكثر من عشر سنين ما معناه انه لا يمكن القبول بإضافة الأشياء الفاضلة فقط الى الجماهير التي لم يكن لها فيها يد أو رغبة فاذا عزى الفضل اليها جزافاً فيما هو نافع وجب تجريمها جزافاً أيضاً فيما هو قبيح وقلت: هل يسوغ ان نخلق نحن لحية التاريخ ونترك نصفها الآخر؟ والواقع هو انه كثيراً ما تكون عامة الخلق اكثر ميلاً الى المشاركة في الأعمال القبيحة التي بها منفعة أو شهوة وأقل ميلاً الى العمل النافع الذي لا يعود نفعه اليهم وكلنا نغض الطرف عن هذا القدر من تفاوت الميول ونكتفي بفقدان الأرادة للناس في الفعل الخير والنافع لكي يخرج من حسابهم الدائن و المدين وهم بهذا غافلون.

ان ما تم انجازه بارادة ستالين في غياب كامل لإرادة الجماهير و بثمن هائل من الدماء و الدموع و بالأثر السلبي اللامحدود الذي تخلف منه روسيا حتى هذا اليوم، كله يعود لحسابه بما فيه جنازة الصلاح الذي في زمن قياسي من القهر. ولا يعني ذلك ان اسلوبه في انجاز ما انجزه كان هو الخيار التاريخي الوحيد فلو كانت الأمور تجري وفق أسس متحضرة بروح جماعية منذ اول يوم لوفاة لينين لكانت النتائج الايجابية أوفر حظاً و الأساليب الوحشية أندر وجوداً ولكن الاسلوب الذي اتبعه كان، في ظل طبائعه القاسية هو خياره الوحيد وفيما عدا أشياء قليلة، من قبل اتفاقه مع هتلر، فالذي فعله كان من طبعه أن يفعله شأنه في ذلك شأن استياق الذئب مع غريزته في قتل عشرات الغنم وهو يشبع بريح نخر فروق على حين لا يفعل الأسد ذلك لأنه لا يوافق طبيعته.

ولكن للكلام في اعمال ستالين بقية خطيرة لا بد من بيانها. فالأعمال الكبيرة التي أنجزها في بعض الحقول ليست سمة فريدة اختص بها ستالين فإن

فلقد ان انسان تملكه الظروف من القبض على مصير أمة يستطيع أن ينقل الجبال من مكانها و يرميها في البحر عن طريقه تسخير ملايين العمال وما هو ضروري من الأموال وغيرها حتى ان بعض هذه الأعمال لا تتم الا بالسخرة لبهاظة الثمن الذي تطلبه وقد يكون نفعها لا يتكافأ قطعاً مع كلفتها فلولا رغبة الفرعون المصري في بناء الهرم بما تيسر له من التحكم من موجودات مصر بشراً و بهيمة وأرضاً وثروة لما أملكت شعب مصر أن يقيمه حتى بفرض انه رغب فيه لأن دوام الرغبة عند ملايين الناس و الحرص على توفير المال والعمل على مدى عشرين سنة بذلك المقياس الهائل شيء خارج عن كل احتمال. فالهرم صنع فرعوني ولا يملك منه شعب مصر إلا جانب الشقاء الذي تحمله في بنائه. ولقد كتبت يوم ١٩٨٥/٧/٧ في حلقة من مقال نشرته باحدى صحف بغداد عن أشياء اخرى مايلي :

« ما ملك العملة المسخرون صرح الهرم إلا كما يملك المحكوم بالأعدام حبل مشنقته أو يملك الغريق أمواج لجته. كان عمال الهرم وعبيده يملكون الهرم في حالة واحدة فقط : وهي حالة امتناعهم عن بنائه !! كل صخرة منقورة في بنيان الهرم شارة عبودية لمئة الف من العملة أو يزيدون وقس عليه كل عمل ملموس وتصرف محسوس قام به الناس خلافاً لرغبتهم وامتثالاً لرغبة المسيطر عليهم لا يعود شيء منه الى حسابهم بل يطرح كله من من حسابهم فالجماهير تزداد فقراً وتتناقص قدراً بالأشياء التي اقامتها برغم ارادتها . »

هذا الكلام يصدق في مصر الفرعونية وفي كل شعب تخلى عن ارادته أو فقد ارادته للمسيطر عليه ولربما كان الشعب السوفيتي اضخم مثال مصدق لذلك والأعمال الضخمة التي انجزها ستالين كانت جميلة هيمنته على الدخل القومي لمئتي مليون بشر يصرف منها ما يشاء ويوجهها حيث يشاء. أما الشعوب المالكة لدخلها القومي فإنها لا وقت عندها للتفكير في القنوات الضخمة و السدود الهائلة وليست مستعدة للتخلي عن ٨٠٪ من دخلها لمشاريع قد لا يكون لها جدوى أصلاً بل تصرف منها ما تشاء حسب مزاجها ولها من كفاءتها الانتاجية ما تستعين به على المرافق الضرورية و المصالح العامة ومتطلبات الحياة العصرية فهي في الحق تملك ما هو مسجل باسم أفرادها وتشارك في ملكية الأشياء العامة بلا تأويل أو إفتعال .

أما أن تكون الأشتراكية هي الخيار التاريخي للشعوب السوفيتية فحقيقتها أن

الثورة كانت مزيجاً من ارادة الجماهير ومن الهزيمة العسكرية التي أدت بأعصاب القيصرية وبحضن كلام قاله لينين في بعض كتبه أن نجاح أية ثورة منوط بشرطين: اولهما أن يكون استمرار الحال بذاته مستحيلاً. وثانيهما أن تعجز الطبقة الحاكمة عن ادارة الحال. فلا بد من حدوث أزمة تحقق هذه المعادلة. وكان كلام لينين محمولاً ما بعد نجاح ثورة اكتوبر وفيه صورة سلبية تحكم فشل ثورة ١٩٠٥... فلما سيطر البلاشفة آلت ملكية الثورة والاشتراكية الى الحزب الحاكم الذي يملك في الظاهر ارادة الجماهير ولكنه تمثيل دائم ومفروض وغير قابل للنقض فالجماهير بعد وصول الشيوعيين الى الحكم لم تعد تملك خيار الرفض وهي حقيقة في مستوى البديهية ولها بقايا قوية وحاسمة حتى ما بعد اعلان البيريسترويكا وسيأتي بيان ذلك -- والواقع هو ان الحزب نفسه تنازل عن ملكية الثورة والاشتراكية لستالين تنازلاً كلياً حتى مماته ولم يقصر الرجل مطلقاً في تنصيب نفسه علناً وباصرار وفخر وكيلاً عن الحزب والشعب والتاريخ واللينينية الماركسية وكالة مطلقة دائمة مدى العمر -- وبعد ستالين انتقلت ملكية الواقع الروسي الى فئات من الهيأة الحاكمة على حسب النفوذ المتاح -- صحيح ان الشعب في اي بلد يجب ان يكون صاحب الواقع كله وما كانت الديمقراطية الحقيقية إلا ترجمة عملية لهذا المبدأ النظري ولكن شتان ما بين الواقع والنظري. والملحوظ أن أشد أنظمة الحكم قسوة وصرامة وانكاراً لحقوق الشعب في حرية الأحياء هي اعلاها صوتاً في اعلان تقديسها للعدالة والأمان والطلاقة ولم تعدم واحدة منها مهرجين كباراً بين الأدباء والفنانين وذوي اللسان الذرب والقلم المبدع و الريشة الخلاقة تجد بركات الديمقراطية في ظل حاميها الذي لم يكن الاحراقيها وكم منهم أطال المدح في نعم الشبع الهنيء والكسوة الناعمة والسكن المريح على حين كانت الناس تموت جوعاً وتلبس خرقاً وتنام في الزرائب. ولنا أن نوسع أطار الكلام لأشياع المعنى المقصود أننا اذا اعتبرنا الشعوب صاحبة التاريخ تكون قد وجهنا اليها تهمة تدين كل جزء من كيانها وكل ثانية في اعمارها لأنها تكون قد صنعت تاريخاً عدواً لها وصديقاً للظالم وتكون مستحقة للكوارث التي تطحنها لأنها تكون هي التي أوقعتها بنفسها اليست هي صاحبة التاريخ؟ أنا اعلم ان الشعوب التي لا تملك الخيار فيما يقع بين ظهرانيها لا تعتبر مسؤولة عن الظلم والقهر وصنوف الهراء التي تمارس على يد المستبدين والقاهرين والقتلة ولكنها تأثيرها المسؤولية

الفادحة من جهة اخرى لا يدخلها الباحثون و المنظرون و المؤرخون في حسابات التربية والتجريم ؛ أنها مسؤولة مساءلة حقيقية مرجوة بتنفيذ حكم التجريم فيها حين تتساءل عن حقها في رسم سياسات البلد وتقعد تتفرج كالكمية المهملة على المهمات التي تملأ أديم أرضها. وكفاها تجريماً و ادانة أنها تتلقى من الذلة والظلم والهوان وسقوط الاعتبار مقداراً هو أضخم وأوجع من سنوات الحبس التي يحكم بها على الحرامي و المزور وقاطع الطريق فهي تقضي كل عمرها الذي تعطلت فيه ارادتها تدفع ثمن جريمتها الكبرى التي هي فقدان الارادة ولا يفيد في جبر الخواطر قولي وقول غيري أن الشعب المسكين لا ذنب له فيما يجري حوله فقد كفاه ذلاً أنه مسكين وكفى بالمسكنة سبباً ضخماً من أسباب التجريم. فإذا اعجبتنا أنفسنا نحن الكتاب والمنظرين في براعة التخريجات التي نخرج بها براءة الشعب المسكين فقد انتهينا الحقيقة الكبرى المتمثلة في تجرع هذا الشعب المسكين لصنوف الذل والنكاية لتهدم الأساس الملفق الذي اقمنا عليه اعجابنا بحذاقة التلفيق الذي مارسناه في التربة الفارغة. اذا كانت غفلة دقيقة واحدة من حاكم كالكلتز كافية كي يسطو الحرامي عليه افلا تكفي عشرات السنين ومئاتها من نومة العافية لمئات الملايين من البشر لتعلمنا منطقاً تعلمناه من نومة الحارس ؟ وهل يأخذ جرأة على تبرأة الحارس بذريعة النوم ؟ كان المفروض والمنتظر والواجب الايقاظ فلما نام فقد طار الكلتز الى جوزة الحرامي ، والعوض في يوم سيعتاد فيه الكلتز !! أنا أفهم يا سيادة الرئيس غوربا تشوف أن الواقع اعقد وأصعب واعصى كثيراً جداً جداً من أن يراض هكذا بسهولة لينهض النائم من غفلة وينسلخ من سيور عبوديته / حتى ان نظرية الكفاح الطبقي لم تكن قط متحققة في اعقاب التاريخ على النحو الذي صيغت به على أنها حركة متصلة عبر الزمن فإنه باستثناء حالات نادرة تناثرت خلال القرون والأوطان متباعدة بعضها عن بعض حتى لا يحس بعضها ببعض، باستثناء هذه الحالات الأندر من النادر لم يكن شيء من الكفاح المندرج تحت مفهوم «الكفاح الطبقي» إلا ما كان منه متمثلاً في «محاولة البقاء» التي كانت تتم غالباً وغالباً جداً في صيغة الجهد الفردي. فالكفاح الطبقي والكفاح القومي و الكفاح العالمي صيغ متميزة تتطلب مشاركة عامة من الطبقة أو الشعب أو كل الشعوب بوعي واصرار لتحقيق الغاية

المقهورة من كل صيغة ، ولا ادخل هنا في متاهاتها رغم اتصالها الوثيق بأغلب ما ورد في كتابك الخطير. فالكفاح الفردي من شخص أو أسرة هو قدر الانسان لكي يعيش لا يحتاج معه أو لا يتوقف على كفاح فرد آخر بل قد يتصادم معه في التنافس على لقمة العيش. وفي القديم حتى أوقات أدركتها كان أغلب التنافس يقع بين أفراد من الطبقة الواحدة فلم ينافس الحمال قط تاجراً أو مالكاً بل كان حمال مثله هو منافسه. والبقال ينافس البقال ولا ينافس العطار وهكذا. ومازالت هذه الصيغة سائدة الا حيث كانت التطور الحضاري المتقدم كفيل عدم التصادم ببدائل من صناعات العيش تحد من الاحتكاك والمهارشة وحديث ذلك يطول. وتبدلت الأحوال في العصور الحديثة وكان للماركسية دور هائل في تنبيه الحس الطبقي ظهر بصور متعددة متفاوتة الحد من التناقض من مجتمع الى مجتمع وكان من نتائجها مثلاً شحذ الحس الطبقي في البلدان المتأخرة انتج فقط بغض الفقير للموسور ولم يستطع منع التنافس بين الكادحين. والنقابات بذلت الجهد في هذا الميدان ولكنه جهد على قصور شديد وفجاجة مؤسية يمارسه جهلة غارقون في العتمة — ان الشعوب التي تفتقد حالات حقوق الأفراد لا يسيلها الاعتراف لها على الورق بأنها مالكة لأمرها فقد كفل ان الفرد فيها لا يملك ذاته او مريته وان النفس الذي يردده هو بمسالمة من أجهزة الأمن والحيلة فكيف يملك تاريخه وهو لا يملك ذاته؟ ولا يجد وشأنه الفرد السوفيتي على عهد ستالين وما أعقبه من عهود التحجر شأن الفرد الفاقد لذاته ويعتبر الحزب نفسه امتداداً للفرد في فقد الارادة فلم يكن إلا حلقة وصل بين القمة والقاعدة لتنفيذ الأوامر مع تقويم فرص لا بأس بها للاثراء مكافأة لدعاة خدماته. كل ذلك على حساب الجماهير التي لم تكن لها ارادة في أية صورة من الصور حتى بدأت أنت واخوانك المؤمنون معك بوجوب التصحيح في صيغة البيريسترويكا فنشهدنا معها بدايات تمتع الأفراد من القواعد بممارسة فردية. والبيريسترويكا تطرح اليوم ضمن ما تطرح من المسائل والمشاكل قضية خطيرة هي أن الاشتراكية هي الخيار التاريخي للشعوب السوفيتية ام هي خيار قدمه اليه وفرضه عليه اصحاب السلطة في قمة الهرم؟ هل تستطيع الجماهير ان تقدم حلولاً من اختراعها أم يطلب منها قبول حلول الهدية اليها أصحاب فكرة البيريسترويكا؟ ها هنا موضع الامتحان الأساسي لمدى عمق

البيريسترويكا وتطلعاتها في اعادة صياغة الشخصية للفرد السوفيتي - والذي المسه في رغبة الناس السوفيت في أحاديثهم المنشورة بالصحف الروسية التي قرأتها في طبعتها الأنجليزية هي تزوعهم الى التمتع بكافة الحرية لتقرير ماهو صريح بنظرهم فلقد قرأت لأحدهم رأيا صرح فيه بأنه لا أمل في نجاح البيريسترويكا نفسها اذا لم تتحقق شروط ثلاثة ، ١. الغاء احتكار الدولة للاقتصاد ٢ - اعادة السوق القديمة التي كانت شائعة قبل الثورة ٣. تقلين العامل وغيره من بيع جهده كسلعة حرية -- وقرأت الآخر كيف اراد معالجة بل الكل الحاحاً على وجوب منح الناس ماهو حقهم ويصرون على وجوب كشف الحقائق و الأحداث المعتم عليها منذ أيام ستالين ويأتون بالمقارنة بين ماهو موجود بحوزتهم و ماهو عند غيرهم من الشعوب المتقدمة حتى ان بعضهم قد يبالغ ويقول أن نصيب الفرد السوفيتي من السكنى هو اربعة امتار مربعة مما حين يملك الفرد الأمريكي غرفة كاملة - -- وهذا حتى احد رئيس المحكمة العليا السوفيتية في احد اعداد NewTimes يقول عن النظام القضائي السوفيتي امور لم اكن اتصورها أبداً . وأجد فلاديمير لوفيكو يقتبس في عدد فبراير لمجلة (International Affairs) ص. ٧٥ كلاماً لسيادتك قلته في الاجتماع ٤٢ للأمم المتحدة نصه في الأنجليزية مايلي :

We are deeply absorbed in the building a socialist rule-of-law-State.

كأنكم تعيشون حتى هذا اليوم في دولة غير مظللة بالقانون . فكيف سيوحي الظن بأن الشعوب السوفيتية اختارت ان تكون انسانية افرادها وجماعاتها غير محمية بالقانون ؟ أن انعدام أو ضعف النظام القانوني في اي بلد هو امتياز تتطلبه مصلحة القوة المسيطرة من الرعية وليس لتفسير آخر ولا ينتظر منه نتيجة إلا تشديد قبضة الحاكم و خضوع الناس لرغبته . واعتقد ان اولى واجبات البيريسترويكا هي نقل هذا الامتياز من الحاكمين الى سواد الشعب وحتى لا تكون مبالغين فالحد الوسط هو حماية حقوق الجماهير بكفالات قانونية فعالة ورسم حدود واضحة لمسؤليات الحاكم وسلطاته ولا يفيد ذلك الا بفصل القضاء من السلطة التنفيذية فصلاً كاملاً واخضاع المجتمع بكامله ومحكوميه الى الاجراآت القانونية والأصولية التي يتولاها القضاء بهيكله المتكامل من ادنى درجة الى اعلاها متمتعاً بنظام وقائي متمثل في نقابة للمحامين كاملة الأستقلال والكفاية --- ولا ارى حاجة الى استرسال اكثر .

الفقرة الرابعة اعلاه التي تنص على « ... ملايين الشعب العامل من العمال والفلاحين والمثقفين ... » واحدة من الشعارات التي شاعت مع شيوع الكفاح الشيوعي الأممي واجتهدت في حضر أخاديد عميقة بين الطبقات أريد لها ألا تكون قابلة للردم و بناء جسور التواصل فوقها أنسياقاً مع الوهم الذي راعب آمال الحالمين من حملة الشعارات الأممية في الوصول الى مجتمع لا تفاوت بين ابنائه عن سبيل جعله لا طبقياً، اي أقامته من البروليتاريا فقط . والحق ان اضافة كلمة « المثقفين » الى العمال والفلاحين جاءت أصلاً من باب تهريب مادة محرمة الى حظيرة « الحلال » لأن الضرورة قضت بأستعمال الثقافة و العلم في تنشئة امور المجتمع وبغيرهما تتعطل المكينة عن العمل. وزيد من صفة « التهريب » لهذه الكلمة وضوحاً أنها تعلن ان العمال والفلاحين ليسوا مثقفين أي انهم غير مؤهلين للنهوض بمهام التوجيه والأدارة والتنظيم و « عالمنة » الأشياء وعاجزون عن تغذية المجتمع بالعلم والتكنيك والفنون والمهارات. وبغير هذا « التهريب » للحرام الى حظيرة الحلال كان يتحتم سد أبواب المدارس و والكليات والجامعات والمعاهد والرجوع بالمجتمع القهقري الى حياة الكهوف وهل يتصور عاقل أن يكون فلاح أو عامل قائد طيارة أو عالم ذرة أو مايسترو في سيمفونية أو استاذاً في جامعة او مهندساً لسردنيير ؟ فالمثقفون هم بالضرورة من البرجوازية من خارج مفهوم « البروليتاريا » بشكل مطلق وهم لب لباب الحضارة والعلم والتكنولوجيا بشكل مطلق أيضاً. فيا أمر المفارقة في تسمية الثورة بالبروليتارية ثم لا يمكن انجازها أولاً ولا إدامتها ثانياً ولا تقديمها الى امام ثالثاً إلا باناس هم من حيث الانتماء الطبقي خصوم البروليتاريا بحسب « التحليل الطبقي » للمجتمع ؟

هذه التجزئة المفهومة من تقداد الفئات الثورية الى عمال وفلاحين ومثقفين لا تبقى اليها حاجة بعد نجاح الثورة لأنها تكون قد وصلت الى الحكم وعند ذلك لا ضرورة قطعاً للشعارات الموجهة باختلاف الانتماء الطبقي او الاجتماعي فالتذكير بأن الفئة الفلانية برجوازية والفلانية بروليتارية مفيد فقط لزيادة النار اتقاداً وقت الغليان الثوري شحذاً لهمم « المسحوقين » في سرعة الوصول الى الحكم بالقضاء على غير المسحوقين. فالمنطق المحض والمنطق العملي يقتضي أن يقتصر على كلمة « الشعب » فقط في ظل دولة « البروليتاريا » - في بعض مواضع الكتاب وفي صدد معالجة الذعر الثوري تقول بحق انه لا داعي للتنبيه على

نوعية الحكم في أقطار العالم فنحن جميعاً سكان كوكب واحد نروم حمايته من الهلاك فإذا كان هدف سلامة « الأرض » سيتوجب المساواة بين أنظمة مختلفة في حقيقتها فكيف سيسوغ تذكير الناس باختلاف انتمآتهم في دولة تدعى انها لا طبقية ؟ اني لا أقيم كبير وزن لرفع هذا الشعار التجزيئي في دولة السوفيات إلا من زاوية تناقضه مع ظاهر الأوضاع بأن الناس متساوون جميعاً في مجتمع اللاطبقات . بل ربما كان ترديده يوافق احدى رغباتي في أن أجد من الأنتمآت بالدولة البروليتارية الأولى دليلاً قوياً على أن وجود تعدد الأنتماء أمر مفروغ منه وضرورة من ضرورات الاجتماع بدليل بقائه مذكوراً في بحث شعارات السوفيت بعد سبعين سنة من قيام دولتهم انما الذي أحسب حسابه هو أن المتدفقين اليساريين في سياسات العالم الثالث يزيدون في تسلحهم بتأجيج الحرب الطبقية حين يرون الدولة السوفيتية تمنح من الوجود لهذه الأنتمآت الثلاث فقط ، عمال وفلاحون ومثقفون فيستمر دوام الحلقة المفرغة من دورات الكفاح السياسي في العالم الثالث حول نفسه من حيث انه لا أمل في نهوضه من كبوته حتى يتراجع عنف مناضليه بحذف أسباب الخلاف الداخلي من مناهجهم وفرقها التجزيئية الطبقية ولكن لا يتخلى الشيوعي عن اسلوب التجزيئي حتى يقضي على الطبقات وممثليها من المناضلين المنتمين اليها بأستثناء البروليتاريا ..

ياسيدي لقد ظهر بالتجربة العملية منذ ظهور الدولة السوفيتية وكان ثابتاً في كل منطق سليم قبل ظهورها أن تركز السلطة والمال في يد الدولة أخطر على حريات الناس وكرامتهم ومصائرهم من توزع المال على رعايا الدولة مع تحديد قدرة السلطات لممارسة الهيمنة والتوجيه بالقوانين المانعة من التعنت والفرسنة من جهة وتكبير دور المواطنين في الدفاع عن انفسهم من السلطة بالتوسع في منحهم حقوق النقد والأعتراض والمظاهرة والأضراب وما الى ذلك . و ليس منتظراً أن يعالج المال بذاته مصدر خطر قائم لا علاج له فالضرائب المتصاعدة و قوانين الحمل الرشيدة وتوفر وسائل التعبير عن الذات لكل الناس بالأضافة الى الرشد السياسي المتولد من نظام تعدد الأحزاب كفيلة وفوق الكفاية لدرء خطر القوة المتولدة من المال في يد الأفراد . لقد جربت بنفسي ، وكنت مواطناً في بلد مرتبط بالأنجليز عن طريق معاهدة قبل ثورة تموز ١٩٥٢ ، ان الوزن السياسي للنائب المعارض أضخم بمراحل من وزن أكبر الأثرياء في البلد فماذا يفعل المال بالسياسة في بلد كالنرويج أو بلجيكا أو هولندا ؟ لقد بزعم متطرفو اليسار في ترويج الجماهير من « رأس المال » فزيد الأفراد فقراً ←

بالألحاح المتوالي على تشويه ما سموه بالأستغلال حتى أشعروها أن حصر المال في يد الدولة وإناطة الحكم المنزه عن النقد بها وتفليس الأفراد من أية ضمانة معيشة مستقلة عن اللقمة التي تتفضل بها الدولة عليهم أخطر مليون مرة من أي سوء قد ينشأ من حرية التملك في بلد ديمقراطي ! أما في البلد الدكتاتوري المحتفظ بنظام التملك الفردي فإن الغني والفقير والجاهل والعالم كلهم سواء من منظور « انعدام الوزن » الذي يعيشونه . فالخطر ياسيدي لا يأتي من المال نفسه لكنه يأتي من فقدان الضمانات الديمقراطية الحقيقية التي يتم الأجهاز عليها أما جهرة وأما بالتغلغل عليها والألتفاف حولها ... ان الأختناق الذي يستشري خطره من البيروقراطية سواء كانت في روسيا أم (في) روديسيا أنكى بالناس وأقسى عليهم من ترك سميث وغونزاليس وبوبولوف يجهد في توفير رأس مال يستغله في مرفق منتج خاضع للرقابة والضريبة وقوانين العمل وضمانات التملك . ثم ان قتل الحافز الفردي الذي كان محور التطور بدءاً بالأحياء ذوات الخلية الواحدة وانتهاء الى الأنسان الذي هو معجزة معجزات الكون المحسوس لهو بداية تلم ذرائع الرمح وسن القلم يستحيلان بعده الى عصا وقصب وما كان افتراض أصلحية الحافز الجماعي في الأشتراكية المنظمة بالقوة الا غفلة كبيرة من المنظرين الأوائل فيها من الطوباوية مقدار ضخم يغطي مرات ومرات على ما فيها من واقعية ثم هي لا تقف عند السلبية المحايدة في الطوباوية ولكنها تعود من أول خطوة الى اخضاع الوجود وتسترسل مع منطقها وطبيعتها الى ما شهدناه في حسابها التاريخي من دماء أريقت وحريات سفحت وخوف من القهر فرضت وأرومات أثيمة اقتعلت وشردت ... حتى وجدنا صدر حوالي عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً من يومي هذا « ١٩٨٩/٦/١٦ » حيث الشعب والثورة تقتل الوف الطلبة العزل في سوح بكين . وهذا بعض صور الترجمة العملية لشعار العمال والفلاحين والمثقفين ولا يمكن حتى في الوهم أن يحل شيء مماثل في اي بلد به ظل للديمقراطية البرجوازية القائمة على ما تسميه الأشتراكية الماركسية « الأستغلال وقهر الطبقات ومص الدماء ... » قلت ان افتراض الأصلحية في الحافز الجماعي على الحافز الفردي كان غفلة وهي أخف شيء يمكن وصف هذا الأفتراض به والا فهي جهل كثيف بطبائع البشر وطبائع البقر وطبائع الأشياء أيضاً فلم تدم الحياة في الأحياء إلا بفضل هذا الحافز ولم يحصل فقس البيض الا بهذا الحافز ولم يتم بناء ولا زرع ولا حلب ولا اكتشاف النجوم والقطبين واعماق البحار والنزول على سطح القمر إلا بهذا الحافز . ان عملية

بسيطة في بعض اعضاء الرجل أو المرأة قد تحيله أو تحيلها الى كائن شبه مخدّر و
انه عملية اخرى تسلبه الرغبة في التملك تنزل به عن منزلته الى منزلة بين البشر والبهيمة؛
الحافز الفردي في بعض صوره، كحب الحياة والدوام، هو قوام الكائن الحي بشراً وبهيمة وبذره
يضمحل ويندثر. والحافز الفردي في أطواره من عمر الانسانية منذ فجرها الأول هو
قوام كيانه في تلك الأطوار كلها. وهو حافز قابل للنمو والتطور وخاضع للتأقلم مع تغير
الأحوال حتى يوم ترتقي المشاعر بارتقاء مستوى الحضارة واختفاء الحاجة الى حافز
التملك الفردي نتيجة ميلاد أحوال يرتبط دوامها وتطورها بالحافز الجماعي بديلاً عن الحافز
الفردي، عندئذ لا يبقى داعٍ لوجود المنظرين والأحزاب وترديد الشعارات من أعماقها،
وذلك يوم يعيد عن عامة الشعوب وهو بالبداهة بعيد عن مجتمع عبد ستالين ثلاثين
سنة واستكان لسنوات التجريد ولم يزل يتعثر خطاه في شباك البيروقراطيين بل
هو يفتقد قانوناً يحتمي به. اقول بالمناسبة أن امطو سيحل تجربتين في وجه البيروقراطية و
المستفيدين من التحجر هو سين التملك الفردي والحافز الفردي والتمرن بالذات حسب رغبة
الذات في حدود قانون متحضر فالرغبات المكبوتة من سبعين سنة داخل تحقق من التوجيهات
والتنظيرات والشعارات وانتظار الوحي النازل من اعلى خليقة أن تجعل من المكبوتين في
حالة المارد داخل القمقم المختوم فاذا رفعت ختمه باطلاق رغبة الراغبين في التملك و
البناء والتعامل و السفر تدفقت فيوضهم مكتسحة كل البيروقراطيين و المنظرين وذرى
اسنجة العنكبوت من الفلسفات والأيديولوجيات و الطرقات و الأستغلالات وحظر
الرغبات وكبح النزوعات.. أقول هذا وأنا ارجو الا يحدث هذا الفيضان لما يحتمل
أن يحدثه من أثر سلبي يظهر في وقت قريب ولكني أقوله من قبيل رد الفعل ضد
هذه الشعارات الداعية الى انشغال ابناء الشعب الواحد بعضهم ببعض في شجار أبدي
سرمدي باسم الكفاح الطبقي الذي لا يقبل هدنة أو صلحاً على حين تشتد الحاجة يوما
بعد يوم الى ايجاد صيغ عمل تعالج الخلافات بالتفاهم كما يفعل المجتمع السويدي والسويسري
وغيرهما من متحضري هذه الدنيا حيث تم خلاصهم من المنظرين والهاتفين والمبشرين و
البيروقراطيين أولاً ثم استراحوا..

سيدي الرئيس عمر باشوف، أنا لا ادعو الى هجر الأشتراكية بالقوة فاذا اعجبت شعباً
أن يستمر في الأشتراكية التي فرضت عليه بالقهر فتلك رغبة محترمة ما دامت تلقائية

انجائية رخائية وليست عند سبيل الغاء ارادة الناس . اقول هذا اشياقاً مع مذهب احترام ارادة الجماهير رغم علمي بأنه على قدر حضور الحافز الفردي في مجتمعات هذا العصر وتقلص دائرة خيار الأفراد في التملك والتصرف يعمل التخلف من جهة و البيروقراطية من جهة اخرى فانه من قبيل البديهية ، حيث يتخلى الناس عن الحافز الفردي من حب التملك وحرية التصرف واختيار طريقة الحياة ونبذ استغلال وسائل الاعلام والتعبير عن الذات ، بديهي أن تتولى طغمة الحكام هذه الخيارات نيابة عن الناس وإلا تجمد الواقع بالمرة ومن هنا تأتي حتمية البيروقراطية فليس من المقصور أن يتنازل الناس عن ارادتهم ثم يقيموا أنفسهم رقباء على الحكام في تصرفهم بالدنيا فذلك خيال من الوهم فإن الحكام في كل البلدان التي لم تستكمل شروط الديمقراطية الصحيحة الحقيقية يمارسون البيروقراطية رغم وجود القوانين التي تحترم الحافز الفردي وتصون الملكية وتقر حق الأفراد في التصرف الحر فكيف تكون الحال اذا كانت الأحوال القانونية والسياسية في بلدما هي التي تشل هذه الأحاسيس ؟ ان أسس الحضارة النبيلة كلها بدءً بالحرية في اختيار نوع اللحم للغداء والعشاء حتى اختيار نظام الحكم في كل وجهاته وأبعاده ومناحيه مروراً بحرية الرأي والعقيدة وطريقة تذوق الحياة كلها عناصر على غاية الحساسية والشفافية تحتاج ضمانات وحيانات قوية عند العبث بها وتشويهها فكيف يكون وزير من الوزراء في بلدما مغبوطاً لسماع رأي الناس واحترام رغبتهم لابد من وجود اجهزة كاملة القدرة على ضبط تصرف المسؤول من صحافة حرة و قضاء حر وتشريع حر وإيمان راسخ عند الناس بأنهم أصحاب الشأن الحقيقيون في وطنهم وان الوزير ورئيسه ورئيس رئيسه وأعوان من موارد الثروة القومية لتغذية المصلحة العامة على حسب احكام القوانين والأنظمة والعرف العام اي أن تكون أجهزة الرقابة والمسائلة مقامة عند العبث بالحقوق وليس لتخويف المواطنين في الدرجة الأولى حتى العاشرة ومع ذلك كله تبقى فجوات و قنوات يمارس من خلالها الموظف الكبير حيلة الالتفاف حول القانون وحول الناس وحول الوطن . فحتى يكون الجندي العادي في مقام يستطيع فيه ان يحمي كرامته في مواجهة قائد الفرقة ينبغي أن تكون الأحوال وصلت درجة مشاركة الذئب و الحمل في مرعى واحد أما أن يستطيع الجندي الدفعي لفطرسة او مخالفة

قانونية يمارسها أمر الفوج فينبغي ان يكون قد تم الأعتراف للعمل بسوق الذهب فالحذر لاينبغي أبداً من مبدأ حرية الناس في الأنزاء عن سبيل الأعتراف بالملك و الحاكم الفردي و الحضانات الديمقراطية . أما أن تكون امريكا بصبغا متجسداً من شرور الثروات الفردية حتى انه تم تصويرها على أنها آلة الشر في هذه الدنيا فحكايتها بسيطة جداً ولن تحلو للذاق المؤمن بوجوب تعرفية الطبقات ؟

سيدت الرئيس غورباتشوف : من أكثر الأشياء خداعاً للنظر في موازين المقارنة بين الأشتراكية الماركسية وما يسمى بالرجوازية هو اتحاد روسيا السوفيتية والولايات المتحدة مثالاً للمقارنة وذلك لأسباب كثيرة :-

اولاً - ان روسيا أحسن مثال مشجع يمكن انتقاؤه من بين الدول الشيوعية وليست امريكا خير مثال في العالم البرجوازي .

ثانياً - كل اساءة تصدر من امريكا تكون خاضعة للنقد من اصدقائها ومن اهلها الذين لا يوافقهم العمل المنتقد تنقد وتكون خاضعة للتكبير والمبالغة من قبل شعوب العالم الثالث الذين لهم مشاكل مع الغرب وتكبر أيضاً من قبل المعسكر الأشتراكي بالبداهة ولكن اعمال روسيا السوفيتية لم تكن قابلة للنقد من الدول الشيوعية أو من انباء روسيا ويتم التغاضي عنها بل ربما يوجد لها تبرير في العالم الثالث .

ثالثاً - يتخذ المنتقدون الماركسيون من اعمال امريكا ذريعة التدليل على ان البرجوازية شر كلها ولا يتطوعون بالتفريق بين سويسرة والولايات المتحدة فالضير السياسي العالمي لم يزل في سبات عميق تجاه الأنحراف الخالي من المصلحة الذاتية

رابعاً - ان امريكا دولة عظمى يعادلها الأتحاد السوفيتي من المعسكر المقابل وكلتا الدولتين قامت بأعمال لاترضى احداً ليس لأنهما دولتان سيئتان دون العالمين وكلتا الدولتين « العظمى » في الدول تعنى معالم واسعة متشابكة تناح معها أنطقة معايير الصلاح في التعامل العالمي اي أن اشياء فاسدة تدخل في نطاق الصالح ، علماً بأن كثيراً من الدول الصغرى في هذا العالم تقوم بفظائع يقشعر منها البدن سواء منها ما كان في الشؤون الداخلية أو في التعامل مع الخارج . ولابد هنا من ذكر حقيقة هامة وهي ان دولة نشأت من الثورة تجد جرأة أخافية في عملها ما تريد لسببين أساسيين على أقل تقدير ، الأول هو انه لايوجد في الداخل رأي عام منفصل عن

رأي الثورة فهي تفعل ما تفعل باسقاط كامل لرأي شعبها حيث لا يوجد رأي ولا توجد وسيلة للتعبير عنه . وذلك السبب هو ان الثورة التي قامت ابتداءً بوجه نظام كان قائماً وقانون كان سائداً واستباحت دماءً في التخريجات الأيديولوجية والسياسية تشعر شعوراً قوياً جداً بأن ما تفعله بعد الثورة مع سائر الدنيا هو في نصاعة وعدالة ما فعلته في الداخل مع الناس فإذا كانت تجد المبرر لأي عمل وحشي تلجأ اليه في الداخل دارها فهي اكثر طمأنينة ورضا عن الذات فيما تفعله بالمجر او بيكوسلوفاكيا أو تتدخل في افغانستان أو ما يجري في اريتيريا وأكناف العالم . - وحينما انت ياسيدي اول واحد من الشيوعيين الكبار يتخلى عن هذه العقيدة المجاملة مع الذات وسحبت جيوشك من افغانستان وتركت « التخامن » في بولونيا يكسب الجولة وأشياء اخرى كثيرة قمت بها جعلت منك مناط الرجاء في استقامة السياسة الدولية على طريقة خليقة بالمتحضرين ومهدت للكفاح الأستاني الخروج من قوقعة « الطبقية » وقولك - وقولك - ما لا يحصى من الأعمال الصالحة . وبقي مع ذلك حكم منطق « الدولة » العظمى في موضوع جدار برلين الذي لا يحمي اهل الدار من الحرامية فالحرامية يدخلون ويخرجون وكلنه يحصر اهل الدار خلف حيطانها المنطبقة عليهم ولن تسمح لألمانيا أن تتوحد ولن تعيد الى المانيا الشرقية أرضاً ضمت الى بولونيا في تشويه « ستالينية » بعد الحرب اخذت من بولونيا أرضاً الى روسيا كما اعتقدت فها هنا منطق الدولة الكبيرة التي تتمسك بقواعد سلوكها وستتمسك بها في نزع السلاح وفي ايه معاملة كبيرة ذات مساس بتوازن القوى . اما أمريكا لا تملك في محيطها مناطق نفوذها أيام هذه التخريجات فهي تفتش بقبضاياتها في العراء مع انها لا تحتل ارض غيرها وليست بها أية صفة من صفات الدولة المستعمرة ولا تملك سيبريا أو آسيا الوسطى او دول البلطيق وتحتاط كثيراً حتى تبدو اعمالها السخيفة معقولة في نظر شعبها على الأقل فلا تفلح في ذلك وتتعرض لأشد التقريع من صحافتها ويكاد يكون الكونجرس طرفاً سياسياً التزم على نفسه نقض ما يبنيه رئيس الجمهورية فكل عوراتها مكشوفة . حتى مجاريرها الفلكية يجري على مآل الناس وانتكاساتها في اي باب يكون هو حديث العالم كله . إن دورة الأربع سنين للرئاسة محنة في حد ذاتها فالمرشح يكاد يستهلك نصف ذاته في مقدمات الترشيح والتهيؤ للمعركة والدخول في المنازلة في شهور مضنية على نطاق الولايات كلها ويستهلك النصف الثاني في خوف دائم من نزاعات الأجنحة المختلفة للادارة ومن شبح الكونجرس فلا يكاد يتنفس الصعداء من

صعوبات السنتين الأوليين حتى يبدأ في هم زوال الدورة الرئاسية - - وهكذا !
ثم ان المجتمع الأمريكي ضخم هائل ومخيف فهو نفسه بصنع الرئاسة وكل الأجهزة السياسية والادارية سد والكلام يطول ويطول فاغادره لأقول أنه لولا ضوابط المصالح الكبرى التي تفرض الأتزان على تصرفات الدوليتين العظميين لكان مما يجاوز طاقة الأحتمال ان يمتلك رئيس السوفيتي او امريكي كل ما جارحاً وتحدياً صارخاً من رؤساء دول لا تعادل بمكانة واحدة من هذين فلكي يكون المقارنة عادلة بين الأقتصاد المحتكر للدولة و الأقتصاد المفتوح للناس وجب النظر الى احوال الدول الوسطى وما دونه الوسطى في المعسكرين : [هولندة - بلغاريا] ، [رومانيا - سويسرة] ، [اوكرانيا - النمسا] ، [المجر - ايطاليا] - وأن توضع المصنوعات والمزروعات في النظامين تحت النظر ليكون الفرق غير خداع - واترك الكلام في الديمقراطية فهو شيء لا مجال فيه للمقارنة - -

بعد الفقرات السابقة من الكتاب وما مرّ من التعليق عليها يأتي اوائل الصفحة ١٥ منه استعراض ظاهرة الأنفاق الأقتصادي والكرود وتراكم المشاكل التي لا حل لها و وتباطؤ النمو - - وأنقل هنا سطراً من اواسط الصفحة ١٦ تتضمن فقرة هامة تطلب التعليق عليها بإصرار اذ يقول :

« لقد انفقنا وما نزال ننفق في الحقيقة ، مواد خام وطاقة وموارد اخرى بالنسبة للوحدة من الناتج اكثر بكثير مما تنفقه البلدان المتطورة الأخرى . ان ثروة بلادنا بمفهوم الموارد الطبيعية و قوة العمل قد افدتنا - »

الذي أراه عند التركيز على ما ورد في الفقرة اعلاه دون الرجوع الى تأثير انعدام الحافز الفردي عند العامل وانعدام اللهفة عند المشرفين على نجاح المشروع في الأقتصاد الأشتراكي المفروض من أعلى ، الذي اراه هو توضيح معنيين تضمنتها الفقرة لهما خطورة بالغة . المعنى الأول هو المفهوم من زيادة الأنفاق زيادة كبيرة على انتاج السلعة في روسيا بقياسها الى كلفة السلعة نفسها في البلدان المتطورة الأخرى [كلمة « أخرى » هنا فيها مجاملة للاقتصاد السوفيتي لأن الدولة السوفيتية ما تطورت بمستوى الدول المتقدمة إلا في مستويات القوة الحربية وغزو الفضاء] . هذه الظاهرة لا خفاء في اسبابها فانه بقدر ما يتمتع مجتمع ما بالطلاقة في تصرفاته وخياراته يكون ايمانه راسخاً بما يعمل فيكون حماسه بمقدار شعوره الأكيد انه يخدم نفسه وماله واخلاقه فهو يكون في

القياسات بمقام الأم التي تسهر على حشاشة روحها في حرصها على سلامتها وراحتها اذا وضعت هي في كفة ، ووضعت الحاضنة في الكفة الأخرى .

والمعنى الآخر هو ان تكون الثروة الطبيعية وقوة العمل للبلدان الاشتراكية قد أفسدت تلك البلدان . اني اعتقد ان كثرة الموارد في حد ذاتها لا تدفع الناس الى الفساد و البطر والدلال فقد يموت الشخص الذي يعيش مع الأسماك في حوض واحد اذا لم يجد آلة يصيد بها وجهازاً للطبخ .. أن الذي بعث في اوصال الاقتصاد الروسي ما هو «فاسد» وسط موارد طبيعية لا مثيل لها في العالم هو ان الطاقة الانتاجية للعامل و الموجه والمهندس و المعمل ومستوى التكنيك والتنظيم اقل بكثير من ان تستوعب في التصنيع خامات كالنفط المتراكمة فانه مهما بلغ ماء الترعة وفيراً فليس في استطاعة المضخة الصغيرة الا امتصاص مقدار قليل منه يتناسب مع قدرتها على الاستيعاب ويتبدد الماء الزائد في المسايل على جوانبها او يركد في البحيرة . ان الفساد الذي يأتي من الثروة هو اشبه شيء بالمال الذي يتكوم في يد وريث شخص غني فيتعرف به على هواه بطراً و تعاظماً مع التكاسل في اصغات الغنيم أو هو ناشيء ، مثلاً ، في حالة معماري قليل الخبرة تزيغ عينه وتشيه بين مقادير الأسمنت والطابوق واعداد العمال والأجهزة المستعملة في البناء فيقيم حائطاً مائلاً الى الانهدام باحجار نائتة وعيوب بارزة . لو كان في الامكان تحويل اليابانيين المتصرف بالموارد الطبيعية السوفيتية لحساب السوفيت انفسهم لقلبوا هذا الفساد الى حنات الخلد فقد رأينا هم يأتون بالعمال من بلادهم ليفوا التزاماتهم في بلادنا في مواعيدها وبقدر نظريات المنظرات فان هذا التدبير لأفلسوا هم ولم تقم قائمة لأي من المشاريع التي التزموها ولتقل ما شئت في المؤسسات الفنية والاستغلال ومص الدماء ماشاءت أن تقول . وانه لمن المؤسسات المكيات ان تكون هذه النظريات التي رابت على نظات العالمين لم تدخل في حسابها الأساسية عنصر العامل البشري واين هو من مستويات الحضارة والكفاءة الانتاجية واحترام الزمن والالتزام بالواجب وكفى بنظرها ان يكون العامل من بلد برجوازي ليوصف بالاستغلالية وكفى ان تكون اسود اللون في امريكا او ان يكون من العالم الثالث لتتجسد فيه معاني الملائكة .. وكل هذا من الأوهام الباطلة . حكى وزير زراعة عراقي زار دانيمارك في دعوة رسمية في النصف الأول من الستينات انه لم يكن يجد غير وزير الزراعة الدانيماركي ما يحمل له شنطة سفره في تنقلاته وانه رحيد العمال الزراعيين فيما قدر صاحب مزرعة كبيرة

سيشاركون رب القصر مائدته في الوجبات الثلاث و اكد بالايمان ان زيبة احد الفلاحين الذين زارهم ضمن تلك المزرعة كانت انظف من بيته هو ولم يكن احد من أولئك بما فيهم صاحب المزرعة وبنته الوحيدة يقضي واجبه ولم يكن احد من الخال الزراعيين يترك ليله بلا فسحة في ملاهي المدينة . ان الحضارة يا سيدي تفعل الاعاجيب في كل جلسات التصرف .. قرأت بأسى بلغ حد الحرقة ان حكومة ستالين باعت في بطن سنوات الثلاثينيات كنوزاً من التحف « البرجوازية » من مثل هدية غراندوق الى زوجة نابليون .. باعت هذه الكنوز بسعر المادة الأولية التي كانت مصنوعة منها وبعد سنين من هذه الجناية التاريخية الحضارية تنبه الأذكياء الى عظم الخسارة فأصبحوا يتوسلون هذا وهذا ممن شراء تلك الكنوز لعلهم يعيدون بيعها للروس وأن سيدة أمريكية عظيمة الثراء اعادت اليهم تحفاً كثيرة .. وهذه صورة تبتعد قليلاً عن حيان الأنتاج وكلها ملتصقة بالانسان الذي ينتج فهو اذ كان يبيع كيلوغرام من التحف بسعر كيلوغرام من البرونز المصروف في قولبته فناً وجمالاً وخيالاً فما أحراه أن يهمل خامات الحديد واسلاك الكهرباء ! بودي لو استطعت مسايرة الفقرة المقتبسة اعلاه التي جاءت بعد فقرات اخرى تقول ان الركود والتقهقر والتأخر بدأ في النصف الثاني من السبعينيات فالذي اعتقده هو أن خميرة هذه السلبيات كانت موجودة في جميع المراحل التي سبقتها منذ فرض الشيوعية بالقهر والقوة فقد تفنن ملايين من الناس ماتوا في وطن الأشتراكية في الثلاثينيات جوعاً فان ناساً من العراقيين الذين زاروا روسيا بعد ثورة ١٩٥٨ وجدوا آثار الكساح في شباب أعتقدوا بانها نتيجة جوعهم وهم اطفال في الثلاثينيات . وهل يستغرب الجوع في وطن يضايق فلاحه بالاضطهاد حتى يجد الراحة في قتل غنمه وبقره وخيله و بغله منعاً لوصولها الى يد السلطة ؟ انا لست يا سيدي في موقف من الأطلاع على الأشياء ببلدكم حتى افهم السبب الحقيقي لأستفحال السوء في السبعينيات عندكم ولكن الذي يبعث على الأستغراب ألا يحدث ذلك في وقت من الأوقات في ظل القهر ومصادرة الحرية و تحمل المسخ والإذلال بالسجود لكلتاتور ! والذي لا شك فيه انه لم تكن الصناعة الروسية « الأشتراكية » في اي وقت من الأوقات بمستوى صناعة اية دولة برجوازية لها صناعة ما يقول الكتاب في وسط الصفحة ١٨ « ان الكثير من الأجهزة المنزلية من نوع رديء » وبقصد به انتاج سنوات السبعين لا بد أنه يشير الى زيادة السوء في انتاج تلك

الحقيقة بقياسه الى ما سبقه وإلا فأنا لم نسمع قط أن تكون الموسكوفيتش وغيرها من موديلات السيارة الروسية بمستوى قريب من مستوى سيارة الدول البرجوازية. وحين استقبلنا خبراء من الروس بعد ثورة تموز ١٩٥٨ وجدنا تأسا على وجوههم عبرة الفقر و في عيونهم الخوف من الشخص الذي يوجههم حتى أن أحدهم سألوا باستغراب بعدما شهدوا أسواق العراق عامرة بكل ما تشتهيه النفوس : ما الذي دفعكم الى الثورة وانتم تملكون هذه الخيرات وكان منهم أناس نزلوا فنادق الدرجة الأولى جنوفا على الحكومة العراقية بقوا فترة يتهيبون مشاركة النزلاء في الوجبات الدسمة المتنوعة بأفخر أطعامها ومشهياتها وفواكهها فيأخذون رغيف خبز وشيئاً من السلاطة ينزوون بها في ركن ... حقا انهم كانوا في منتهى الأدب لا يحس بهم أحد وهم يدخلون ويخرجون و لكنهم كانوا يبدون أشبه بسكان كوكب آخر . على أني لا أنسى القول بأن الأحلام الزراعي العاطفي الذي رافقنا بعد ثورة تموز نحن نزرا عتنا فخلته المزارع الجماعية نزراعتكم فكلنا في الهم شرق والحمد لله ..

بعد أشارة الكتاب الى ان الأجهزة المنزلية السوفيتية من نوع روبي يأتي تعداد الأوجه النقص والتراجع والفساد على جميع الأصعدة بما فيها الأيديولوجي والخلقي . ان جميع سطور السطور في وسط الصفحة ١٨ حتى موضوع : (التوجه الى لينين المصدر الايديولوجي للبيريسترويكا) في وسط الصفحة ٢٠ بحاجة الى تعليقات مركزة مكثفة كاشفة كي نزول منها لهجة الأستغراب مما حدث . وهذه عينات من الكلام الذي ورد في هذه الصفحات .

١- بدأ تدهور تدريجي في القيم الأيديولوجية والمعنوية كشعبنا - وسط الصفحة ١٨ -

٢- معدلات النمو تنخفض .. تناقص في الأستعداد لتلقي منجزات العلم والتكنولوجيا .. تباطؤ في تحسن مستويات المعيشة .. صعوبات في توفير المواد الغذائية والأسكان والسلع الاستهلاكية والخدمات - بعد العبارة المقتبسة فوق مباشرة ..

٣- دعاية النجاح - الحقيقي والمدعى - تحظى باليد العليا .. جرى تشجيع المديح والخنوع .. تم تجاهل آراء الناس والرأي العام .. شجع التنظير المدرسي في العلوم الاجتماعية و استبعد منها التفكير الخلاق .. أعلنت احكام وتقييمات [illegible] على انها حقائق .. اثرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة والفنون والصحافة وعلى عملية التعليم والطب حيث ساد المستوى دون المتوسط والشكلية والمديح الصاخب

أيضاً - حق الثلث الأول من حب ١٩ -

٤. كانت التقديم الواقع « الخالي من المشاكل » آثاره العكسية فقد حدث انفصال بين القول والفعل ... بدأ الفساد يسري في الأخلاقيات العامة .. زاد إدمان الخمور والمخدرات والجرائم ... وهكذا حتى النهاية ...

ان الذي اعتقده ويؤكده الواقع التاريخي هو أن اغلب هذه العيوب قديمة موجودة منذ اوائل الثورة . من باب المثال أقول ان دعاية النجاح وتشجيع المديح والتنويع كانت ركناً دينياً وطنياً بروليتارياً ماركسياً مفروضاً على الشعب السوفيتي في ليله ونهاره على ايام ستالين . الحزب كله كان كلاً مهملاً بل ميتاً تحت قدم ستالين ، والشعب كله اكثر منه موتاً ! اما روح البطولة في الحرب واثناء اعادة التعمير المعروضة في ثنايا الجمل فتفسيرها واضح : فالحرب كانت تهدد الوجود الروسي لأنها كانت حرب ابادة اي annihilation فلم يكن بغير الأستسلام لتوفير السلامة . ان الجيش الحمراء ابادوا حتى الناقمين على نظام ستالين الذين استقبلوا الألمان بالزغاريد ، ورفض الجنرال الروسي الأبيض الذي سمي اسمه وما جمع من انصار مستعدين لمحاربة الروس . والدنيا كلها لاحظت تغيير خطب ستالين من ترديد مفاهيم الطبقية الى رفع شعارات الوطنية الروسية بعد أن رأى جدية خطر الزوال . فالروح البطولية أثناء الحرب قد ثارت من مكامن اعمق واقدم من عمر الثورة واكثر عمقاً من ان تستطيع جرائم ستالين قلع جذورها فالحرب المنتصرة فرضتها المانيا على الشعب الروسي وإنبعثت روح التضحية من خلايا الروس برغم المذلة ومصادرة الأنسانية التي مارسها ستالين ضد مواطنيه . ولئن كانت دفاع الأستاذ عن روحه لا يحتاج الى تنظير وتفسير فلا يخلو من فائدة ان اذكر الدنيا بما كان من روح الأحرار على حماية الكرامة القومية التي ابداها الشعب الفنلندي في الحرب التي فرضها ستالين عليه وقد ظنها في اول الأمر نسخة من نسخ المناورات او جولة من جولات لتمرين العضلات وكان المظنون انها حرب بين نفر وقط فخابت الظنون ببطولة الفنلنديين وللروس انفسهم امثلة في الدفاع عن النفس بما يرفع اي استغراب فقد لقي الاستشهاد بموقفهم من حرب نابوليون . الخلاصة ان حماية الروح مشهودة في كل حي .

اما المفتريات العالية في اعادة التعمير بعد الحرب فهي من بعض الوجوه امتداد للحماس الذي كان متقدماً وقت الحرب بما زجه أمل عذب بمكافأة الذات على البطولة والتضحية وقد يكون ظروف ما بعد الحرب المستدعية لأموال عمل مريحة تساعد على سرعة الأنجاز قد قللت من حدة القهر والسخرة او استبعدتها نهائياً فكان اقبال العامل على عمله

يروح مستبشرة بالأضافة الى انه كان يعيد بناء بيته ومزرعته وطرق مواصلاته ولنا من روح البطولة التي اظهرها الشعب الفنلندي بلا ضجيج او شعارات او ادعاء بطولات في تبرعه سباعي عمل يومي اضافي دون أجر على مدى السنوات التي تم فيها دفع الأتاوة المفروضة من قبل روسيا بعد الحرب ، هذه الروح لا تبقى استغراباً مهما بكت قليلاً من اقبال الروس وغير الروس على اعادة البناء وهل قصر البرليمانيون أو الأملاك ؟

اذا كان لابد من التسليم بأن السبعينات أمتازت ببروز العيوب الضخمة في المجتمع السوفيتي ففسير ذلك او تعليله لا ينحصر في أسباب خاصة بتلك الحقبة اي انها لم تنبع كما ينبع بترفط على فجأة او تنبهمر رخة مطر من غيمة عابرة . ولئن كنت بعيداً عن وطن الأشتراكية فلست بعيداً عن هذا العالم الأوسع الذي يمد الأنسان بأسباب الأستنتاج لاسيما في أمور واضحة الحدود مفهومة العناصر فالذي يبدو أنه من الأسباب الوجيهة لظهور هذه العيوب في السبعينات ثلاثة أسباب مؤكدة الوجود . السبب الأول هو ان تراكم السلبيات يجد ذاته يؤول الى حد القابليات وفتور الحماس واستشراء الأهمال وهو شيء لا يختص بمكان وزمان معينين بل هو ساري المفعول مطلقاً . والسبب الثاني هو تزايد إطلاع الشعب السوفيتي على حقيقة الأحوال في الدنيا من حوله وانها ليست ذلك الجحيم الذي تصوره نظرية الطبقات وفوائض القيمة وعمليات امتصاص الدم فقد وجد في المقارنة ان تعشية الحياة في بلده على ضوء هذه المعقولات ما أرجحت الحبة الموعودة منذ أكثر من نصف قرن . ولما كان المجال أمامه مسدوداً لطلب التعديل والتصحيح ركبه العياء و الكلال فمال الى السلبية وكان مما يستطيبه القادة المسيطرون على المصائر في بلدكم ان تستمر الحالة على النمط التقليدي الذي ارتفعوا فيه الى النعيم المضمون الحالي من التعب و احتمالات الأفلاس . والسبب الثالث . وهو ذو صفة سالبة ، هو خلو السلطة من قبضة فولاذية وشخصية أسطورية من وزن ستالين تستطيع بالقهر والجاذبية الشخصية والهالة المقدسة من حوله ان تقيم في الحركة مجتمعاً متعباً مخذول الآمال . ولكي يزداد هذا السبب وضوحاً نفترض ان روسيا حكمها بولغانين أو كوسيجين أو بريجنيف في العشرينات والثلاثينات والاربعينات - وقت الحرب - و هي جميعاً أرهب فترات التجربة السوفيتية فهل كان متصوراً ان ينجح هؤلاء في

تحريك جهاز الدولة وسط المصاعب الحالمة فهم قد أخفقوا في منع الركود و التقهقر على إثبات إنقياد الظروف والأحوال بعد الحرب للإرادة الرشيدة - الحكيمة ؟ أن المتتبع لمجريات الأمور في الأتحاد السوفيتي لا يصعب عليه ادراك الحقيقة التالية وهي ان لينين نفسه لم يستطع رغم شعبيته الأسطورية و مكانته السماوية السامية في القلوب ان يقود بلده المنقلب بعد الثورة و الحرب الداخلية الى اى مقدار ملحوظ من الرخاء المنتظر والموعود فلقد كان امام ثلاثة عوامل حاسمة ضيقت بوجهه احتمالات الترفيه وهي أولاً استحالة قدرة الأشتراكية المفروضة بالقوة و الآخذة بمبدأ مناهضة النزوعات الفردية ليحل محلها « روح الجماعة » عند تحريك مجتمع هو في طوره الذي حدثت به الثورة ابعد ما يكون عن الشعور العام المشترك الضروري البديل من الحافز الفردي كي يتم تحريك أفراده وجماعاته في طواعية قطع الشطرنج لخطط اللاعب بها حتى ولو كان اللاعب هو لينين نفسه فالمقدار المنضبط من مجموع الشعب الروسي والناضج الى حد الكفاية للتلبس بروح الجماعة كان يضيع في بحر مجتمع متفاوت في حد ذاته في كل ميادين الأجتماع ومزقت ومشوهة بالهزيمة والحرب الداخلية ومتلهف على لقمة يأكلها ولخلوات راحة يتنفس فيها وموعود بالنعيم المقيم و الهناء المستديم الذي لم يكن ممكناً إلا في الخيال والشعارات ... حتى ان المقدار المنضبط نفسه كما نقرأ من خلال ما حدث بعد الثورة ، ثار أو تمرد قسم خطير منه على مسار الثورة في أيامها الأولى لا لأنه خان نفسه ومبادئه ولكن لكون التخطيط والتنفيذ بعد الثورة لم يأت على حسب الموعود. وأقول هنا أيضاً أن عدم التطابق ما بين شعارات الثورة و بين انجازاتها لم يكن بنية شريرة من قيادتها بل نجم عن طوباوية فلسفة الثورة/ ذاتها واستحالة تطبيقها إلا على الورق. ان كتابات زعماء الثورة في الحقبة التي تلت الثورة مباشرة لا تخرج عن روح خطبة ليقيرها قسيس في وصف الجنة التي تكون بعد الحياة الدنيا كلها بشارات للمؤمنين و ترويعات للفاسقين ... العامل الثاني هو استحالة الارتداد الفوري ضد وهمية شعارات الثورة وبعدها عن واقع الحال بعداً يقطع الصلة بينهما . ولو استطعنا الخيال المؤزر بالأدلة ~~الت وصدها كل منا~~ في مبدأ الحياة العملية لأستطعنا ان نقارب الحقيقة في تفاصيل التصادم اليومي المستمر بين شعارات الثورة الطوباوية وداخل الواقع الذي لم تلده الشعارات . يا ترى كم مرة في كل يوم عمل تناسى مفاهيم

شعارات الثورة كي يمكن تسيير قطار الموت خطوطه ونقده وقوده وأحدم سائقه
و زج مهندسوه في السجون بسبب الانتماء الطبقي و تبلد عماله في زحام المشاكل
التي لا حل لها وهم بالأصل غير مؤهلين لتسيير القطارات فاذا حصلت الحجة بكل
الطرق المشروعة وغير المشروعة فتحرك القطار . لك ان تتصور مرة اخرى الزغاريد و
الهتافات ومظاهر الفرح بقدرة الثورة على الخلق و تحقيق المستحيل بتحشية القطار
مع العلم بأن عشرة قطارات تكون قد تحركت خلال المرة نفسها من محطة في السويد
أو الدانمارك أو فرنسا بلا زغاريد . تذكرني هذه الملحوظات بفيلم يصور حالة عالم يعتاد
مراجعة الكتب في كل مشكلة فلما أضطر الى مناولة شخص مشاكس وضع الى جانبه اثنا كتابا
فت الملاكمة فحدث انه كلما راجع تعليمات الكتاب تلقى لكمات هائلات فألقى بالكتاب
بعيداً وهاجم خصمه بالأنظريات فصرعه في لكمة واحدة -- لم يكن لينين وصحبه قادرين
على نبذ كتبهم وشعاراتهم بالسهولة المشهودة في الفيلم وان كان عنصر النجاح في الحالتين
واحد وهو اتباع ضرورات الحال لا خيالات الحالمين . العامل الثالث هو مرضه
الذي شل قدرته الخارقة في تبديل التكتيكات ووضع البدائل . كان بحاجة الى فترة
زمنية كافية بقدرة صحية كاملة لاستيعاب مجمل الحال الناشئة التي تقتضي حلولا من
تراث الثورة لا من اعلامها الخفاقة . لعلك قد أجد دليلاً على صحة ما ذهبت إليه
في تعليل الركود والفساد من هذا الكلام الذي اقتبسه في أواخر الصفحة ٢٠
اذ يقول : (وكانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك الأشخاص الذين
يحظون بالثقة والمسئولية . ومع ذلك يسيئون استخدام السلطة ، ويقمعون
النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا حتى الى شركاء في اعمال اجرامية - ان
لم يكونوا منظمين لها .) فالجماهير هذه لم تفكر فيما سبق من الزمان في السخط
ولم تكن قد تعودت قط أن تسمع نقداً على أيام ستالين حتى رأت نفسها أو
وعت نفسها في التسعينات فتفطنت الى ما يجري من سوء التواء فصارت تنتقد
فيقرع نقدها . وكان لي تعديلٌ بسيطاً في صيغة الكلام يفرضه منطق الكتاب نفسه
فلا داعي للذهب على (الجماهير العاملة) هكذا بشكل مطلق لأن العمال أنفسهم كانوا
مشاركين في صنع الأشياء الرديئة والتصرف اللامسئول والأسراف الحمقى في المواد - الخ
فالأصح ذكر (الجماهير) فقط فاذا كان لابد من تحديد هويتهم وجب القول (الجماهير -

- الواعية ، أو المخلصة ، المثقفة ...) حتى ينتفي العجب من سخط ناس هم أنفسهم جزء من أسباب السخط .

في صدر الصفحة ١٦ يجامل الرئيس غورباتشوف (الشيوعيين) حين يقول : (وبطبيعة الحال ، كانت تنظيمات الحزب تعمل ، وأدى غالبية الشيوعيين واجبهم نحو الشعب باخلاص وتفان --) وهي مجاملة ربما فرضتها اعتبارات خاصة تخدم غرض البيريسترويكا نفسها . تفاديا لجرح شعور عامة الحزبيين . وبغير هذا التعليل أو تعليل مماثل له لا أدري كيف اقتنع بحصول التقهقر والفساد رغم تفاني واخلاص غالبية الشيوعيين في بلد محكوم بالشيوعيين من قبل الشيوعيين على حين نعلل الفساد والتقهقر نفسه بعدم التفاني والاخلاص ؟ ان أية أمة تكون غالبية أبنائها الذين هم من ذوي المركز المرموق متفانين ومخلصين ستكون بألف عافية وسلام . وللرئيس غورباتشوف كلام في سطور من النصف الأول للصفحة ١٧ يلقي ضوءاً كافيا لمعرفة حقيقة أولئك الذين كانت العبارة السابقة قد عنت عليهم فهو يقول هناك (وانتقد الناس الذين يمتلكون خبرة عملية واحساساً بالعدالة والتزاماً بمثل البلشفية الأسلوب القائم للعمل) ، ولاحساسية عنده في كلمة (البلشفية) هنا فهي كأي مذهب سياسي اجتماعي لها أسس خاصة بها صيغت أصلاً بعناية من يدرأ النقص المؤدي الى الخلل وغيره ، فالمسيحية نفسها وهي على الطرف المعاكس للبلشفية تعد المسيحي بمنزلة اذا تمسك بها امتنع من الالتواء -- ولكن يبقى مجال للقول بأن من يملك (خبرة عملية واحساساً بالعدالة) سواء كان بلشفياً أم غير بلشفي أم من الهندوس أو المسلمين يؤدي واجبه على الوجه الصحيح ولا يلتوي ولا يحتاج الالتواء من ذوي المراكز الرفيعة لكي الانتماء الحزبي سواء من البلشفي أم من اي حزب آخر يؤمن بنفسه فقط يكون على وجه الضرورة عائقاً خطيراً لوقوف الحزب ضد انحراف حزبه . ان الحزب الذي يؤمن بحزبيه فقط يرفض حتى المواقف النبيلة من حزب له ايديولوجية خاصة به ويكره تعدده بأية سمعة نظيفة ويستهلك كل قواه العقلية لتشويه أسم الآخرين وتأويل حسناتهم على أنها قباحات . وهذه ظاهرة ملموسة بلا داع لتكلف الأدلة . فما عسى يكون موقف شخص حزبي من هذا الطراز اذا التوى حزبه او قائده ؟ انه يعكس الآية بلا تعب فيسمى قباحاته وفضائله بالسهولة التي يسمي بها فضائل خصمه قباحات .. وهذه طبيعة اي حزب لا

يؤمن بحرية اختيار الآخرين وتعدد الآراء والأحزاب فاذا برز بين صفوفه أحاد من طينة أخرى تمت تصفيتهم وفي ذلك حكمة مضاعفة ففيه خلاص من العناصر المقلقة وفيه ترويع لعامة الحزبيين وغيرهم من سواد الناس ولربما كانت تصفيات ستالين ابرز مثال في تأريخ النضالات كلها على ما أقول. إننا لم نسمع بتصفيات داخلية مماثلة لما فعله ستالين في طول الفترة التي اعقبت حكمه ولكنا وجدنا كيف تم القضاء على كل حركة طالبت بشيء من حرية التحرف في دول أوربا الشرقية وما حاذ ذلك من الأيحاء للحزب الدلبشفي بأن مصيره لا يكون خيراً من مصير المجر وچيكوسلوفاكيا. وان من حقي أن أتساءل: يا ترى ماذا كان خليقاً بريجنيف ان يفعل فيما لو طالب أحد في أيامه بالبيرسيتريكا والغلاسنوست؟

بعد مجاورة امور اخرى تستدعي التعليق أعمد الى واحدة من اعقد العقد في موضوعي وسط الصفحة ٢ بعنوان،

التوجه الى لينين ؟ مصدر أيديولوجي للبيرسيتروكا

هذا العنوان متبوع باستطرادات تستغرق أقل من صفحتين. وفيها أشارات غير مشروحة الى لينين مثل: (بقيت اعمال لينين ومثله عن الأشتراكية بالنسبة لنا مصدراً لا ينضب للفكر الابداعي الجدلي - والأثراء النظري والحصانة السياسية ... إن لينين يعيش في عقول ملايين الناس وافئدتها ...). ويقول (والتوجه الى لينين حفز الحزب والمجتمع اليه بدرجة كبيرة سعيهما للعثور على تفسيرات واجابات عن الأسئلة التي طرحت ...).

وزارة الثقافة والاعلام

ويستشهد الرئيس غورباتشوف في نهاية الصفحة ٢ وبداية الصفحة ٣ بخبرته الخاصة في اثبات ما تقدم عن لينين فيقول: (ففي تقريري بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩٨٢ في الأجتماع الجماهيري المكرس للذكرى ١١٢ لميلاد لينين أشرت الى معتقدات لينين حول الحاجة لأن نضع في الأعتبار متطلبات القوانين الأقتصادية حول التخطيط والحساب الأقتصادي و الاستخدام الماهر للعلاقات السلعية - النقدية والحوافز ---).

ثم يقول: (واليوم يوجد لدينا فهم افضل لمؤلفات لينين الأخيرة، التي كانت في جوهرها وصية السياسية. فعندما أشتدت عليه وطأة المرض كان شديد القلق على مستقبل الأشتراكية وادرك الأخطار التي تترصد النظام الجديد ... لقد رأى ان الأشتراكية تواجه

مشاكل هائلة وان عليها ان تكافح بقدر كبير من اجل ما عجزت عنه الثورة البرجوازية عند تحقيقه ...) .

وينتهي الى ما يلي : (و الفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية في الحقيقة وهي تقلنا لأنها برهنت على قوة الجدل الماركسي اللينيني التي تستند استنتاجاته على تحليل الوضع التاريخي الفعلي ...) .

من المؤسف انا لا نملك نصوص كتابات لينين التي تشير هذه الأسطر إليها ولا نثبتاً بالأحداث التي اوحت بهذه النصوص او استوحت من هذه النصوص فقد لاحظت ان لينين بوجه قائد معركة اكثر من وصفه فيلسوفاً مشغولاً في الدرجة الأولى بالتنظير ، لاحظت انه كثيراً ما يتناول مواقف خصومه بالنقد فيتمادى فيه حتى يستخلص منه احكاماً عامة يختلط فيها الحدث والنظرية وليس مستغرباً على مثل عنفوان لينين في رد خصومه ان يستشهد بحدث آخر مختلف المدلول فيستخلص منه ايضاً احكاماً عامة : انه في مجمل أمره قائد تكتيكي يتعامل مع المتغيرات حتى انه طور الماركسية بحسب ما يعتقد انه مقتضى الاحوال المستجدة . لقد وجدته في كتابه (عن الأمبريالية و الامبرياليين - دار التقدم ، موسكو ١٩٧١) يتناول اناساً مثل كاوتسكي وبليخانوف عند اعتبرهم خارجين على الماركسية بكلام بلغ الغاية من العنف والانفعالية خرجت به عن الموضوعية خروجاً بعيداً عن دائرة تحري الحقيقة والمصلحة او الانصاف . انه لم يقطع الشعرة مع حكومة المانيا في معاهدة برست ليتوفسك ليقينه بأن سلامة ودوام الدولة السوفيتية متوقفان على الخروج من الحرب ولكنه قطع الشعرة مع خصومه الذين لم يكونوا قط أسوأ من قيصر المانيا ، ولو وصلوا الى الحكم لكان الأحتمال الارجح بقاء دولة ثورة اكتوبر على صورة من الصور ، وتلك عنفوان لينين و ثقته الكاملة بنفسه وافكاره وإدانته الكاملة لأفكار غيره سهلت عليه مناجزتهم الى حد الوقوف خندهم في نهاية الطرف الأقصى منهم وليس من الصعب ملاحظة كون لينين بعد نجاح ثورته اضحاناً جديداً يختلف كلية عنه في أيام ما قبل الثورة وهذه صورة من صور ما سبق لي قوله ان (المنتقد) في العادة يقول ويحرر من موقع اللامسؤولية لأنه غير ملزم بتقديم البديل الأصلح أو المساوي لما ينتقد وإنما يقدم كلاماً منفعاً مختاراً في كثير من الأشياء البشرية التي لا يمكن ان تكون خالية من النقص ، ولكن مع هذا اجد من حقي ان اعاتب اضحاناً ينتقد غيره في شيء ما ثم يأتي هو بشيء لا يتميز بذلك

الكمال الذي يبرر رفضه المطلق لعمل غيره. ان الانسان ملزم ادبيا وانسانيا وعلميا ومهنيا ومن كل وجه ان يكون نقده لغيره مبنيا على امكانات متوفرة وغير مستحيلة لبناء ما هو افضل. لا بد من وجود قرنيك بين درجة النقد وبين (احتمالات الأحسن). في رأي كان لينين واحدا من الأفراد المشحونين بطاقات ثورية وتغييرية هائلة، يصرفها صب طريقة في التفكير والى هدف هو مؤمن به فليس له صبر على التريث لمعرفة اعذار الآخرين.. فهو اختار ان يركب قطار قيصر المانيا لسرعة الوصول الى بلده ولكنه بدا أمام ريب لم يكن يلوح لأحد غيره فيما لو قام بما قام هو به ذلك أن عنفوان طبعه وثقته المطلقة بنفسه [التي تتضمن بالضرورة قلة ثقته بالآخرين خارج دائرة عقيدته] ما كانت لتتفتح على مباركة الرجعيين مع ألمانيا في قطار العودة حالم يكن نفسه هو العائد. لقد استعصى عليه عقل مجاهد ثورته ان يرى في الاشتراكيين الثوريين شركاء، ولكنه صالح المانيا في بريست ليتوفر له. وهو في مواقفه هذه يصدر عن حكم ضميره المتلئ بالرضا عن الذات والاطمئنان الى سلامة نواياه، أما أن يقبل سلامة نية انسان آخر يخالفه في رأيه فذلك شيء كان يرفضه رفضا قاطعا في طبعه. انه رفض الاستماع الى اي صوت من اطراف ثورة ١٩١٧ يدعو الى اللين والتريث، حتى اذا قامت الدولة السوفيتية وفق نظرته هو برزت المشاكل فمنها ما كان من قبيل طبيعة الاشياء في كل عمل محاول، ومنها ما كان من نتائج الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي وهي طبعا أمور كان من المنتظر ان تقع ولا يعذر فيها الانسان بعدم اخذه الأهبة لها او سبق تحسبه منها؛ ولكنا مع ذلك نسقط من حسابنا ونقف فقط عند المشاكل التي كانت ناجمة عن تطبيق الأشتراكية بوجه مصاعب بل بوجه مستحيلات كانت غير خافية على اي شخص ينظر الى الدنيا بغير تحيز. فالذي يشير اليه الرئيس غورباتشوف من خوف لينين، بعد اشتداد المرض عليه، على مستقبل الاشتراكية نتيجة ادراكه للأخطار التي ترصد النظام الجديد هو في الحقيقة، وضع نشأ من عدم نضج الاحوال لأية اشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ والعشرينات فلقد اصبح الخطر الخارجي وشبح الحرب الأهلية، بل حتى وجود معارضة داخلية من المتعذرات المستحيلات التي لا يحسب لها لينين اي حساب في مخاوفه فلا يوجد غير سلبيات النظام المفروض في أعلى الهاشة من عدم توافقه مع حقائق الأحوال والخلفية التأريخية والرغبات التلقائية للجماهير لتكون موضع مخاوف لينين. ومن مفارقات هذا التفاوت بين ما تقتضيه ثورة اشتراكية من تقدم حضاري وبين احوال روسيا المتدهورة في اعقاب الحرب والهزيمة هو ما سعه

من اختيار البلاشفة بقيام دولة اشتراكية في بلد كانت حقائق الحياة فيها لا تؤهلها حتى الى نظام ديمقراطي سليم فلقد كان في امكان البلاشفة ، إذا اصروا ، ان يقيموا نظاما كهنوتيا بدلا من الاشتراكية باستعمال الوسائل التي استعملت في الثورة الاشتراكية . ولا نعلم مدى ما كان يمكن أن يحصل من فرق بين الآثار السلبية التي حدثت بعد الثورة الاشتراكية ، وهي نفسها قد حملت لينين على التخوف من الاخطار المحدقة ، وبين ما كان سيحصل قطعا من الويلات في دولة كهنوتية . ولكني لا أظن أن تجاوز هذه الآثار كان يصعب على اصحاب الشأن فالثورة البلشفية نفسها قد انقلبت على جماهيرها لسنوات طويلة حتى سخرتها لإرادة ستالين ففعل بها الأفاعيل . والكلام هنا في اقامة دولة كهنوتية يدور حول افتراض لم يكن له أن يحدث بحال من الأحوال ولكنه يساعد على تقريب الاحتمالات المتعددة لنتائج شيء واحد بالذات ما دامت ارادة البشر وليست قوانين الطبيعة هي المسيّرة . ومما لا يحتمل الجدل ان الثورة البلشفية كانت تجاوزا واسعا لأسس التحليل التاريخي والجدلي الماركسي وشروطه في قيام مجتمع اشتراكي ، ولا يتأتى إلا بتأويل واسع الانفراج اعتبار الثورة البلشفية اغناء للماركسية فليس ما يغني دائرة الأنواء الجوية ان ينزل مطر غزير عقب نشرة تبشر بسماء صافية . وتوالت تجارب الثورات الاشتراكية بتجاوز تام لشروط ماركس حتى وجدناها تنجح في أكثر بلدان الشرق تخلفا ولكنها جميعا في اخفاقاتها الفادحة و دهوريتها الوبيلة جاءت مزكّية لماركس وشروطه الحضارية بقياسها الى ضحالة الفكر التي اتسمت بها هذه الثورات حتى لم تخرج عن كونها مغامرات . ولكن لا بد من القول بأن هذه التزكية التي هيأتها روح المعاصرة لدى اولئك الثائرين داخلتها موازنة سلبية لافكار ماركس بابتعاد المجتمعات المتخلفة عن (الثورة الاشتراكية) التي توقع قيامها في تلك المجتمعات . ولزيادة توضيح دور الثورة في نشوء المصاعب التي خلف لينين نتائجها اقول ان سنوات العشرين التي تعتبر من الفترات المدلهمة في حياة الفلاح الروسي كانت من أزهى عهود الازدهار للفلاحين في عموم المناطق التي اطلعت على احوالها في بلدي فقد كان انفراج الأحوال بعد الحرب وانعدام العراقيل الفلسفية والثورية امام الفلاح وغير الفلاح ابطء سببين بدائيين لانتعاش الناس حتى ان الفلاح كان بسبب استغنائه عن اسهامات مالك الأرض بالبذور ووسائل الانتاج أصبح يكره وجود المالك حتى حلت سنوات الكساد العالمي في ازمة آخر العشرينات وبدايات الثلاثينات فاختل الميزان ولكن ليس الى حد الفاقة

الا بعد اشتداد الأهوال في سنوات الحرب الثانية : هذا مع العلم بأن بلدي كان خارجا من حرب ١٩١٤ و تابعا للحكم العثماني المتخلف اثناء الحرب الاولى و أصابه القوط المميت سنة ١٩١٧ و ظل مرتبطا بيريطانيا في العشرينات و الثلاثينات حتى نهايات الخمسينات و هو في القياس الى روسيا القيصرية يعتبر في نهاية التخلف .

في كثير من استشهادات الكتاب و المفكرين و السياسيين ، حتى العسكريين ، الروس بآراء لينين نجدهم يستعيدون منه اقوالا تتضمن نصائح عامة بالتزام الطرق الصحيحة وما الى ذلك مما ليس فيه وضع نقطة واحدة على حرف واحد مثل الذي سبق من قوله : (الحاجة لأن نقع في الاعتبار متطلبات القوانين الاقتصادية -- والاستخدام الماهر للعلاقات السلعية - النقدية ...) فإن أصغر بقال في السوق يلتزم في مجال عمله بما هو أدق و أهوط من ذلك . أجد عسكريين كبارا من الروس البلاشفة يبدأون وصاياهم في مجال الارتكان الى الرادع النووي الذي جاء بعد عشرات السنين من موت لينين بوجوب الالتزام بالماركسية اللينينية في الفن العسكري ، لا يقولون ما هو هذا الفن او الطريقة التي يمكن ان تستنبط بها الخطط في السوق والعمليات فانه مما لا يرقى اليه شك ان كلا من ماركس ولينين كان ابعد الناس عن تصور الطريقة المثلى لتفريغ لوري عسكري من حمولته ، ولا احد الواقع اذا قلت ان اكبر كارثة عسكرية يمكن ان تلحق بجيش من الجيوش تكون اذا استعان قادته في خططهم وتكتيكاتهم بآراء المنظرين ولو كانوا من وزن ماركس . وارجو الا اكون مناقضا لنفسي اذ أنقل عبارة وردت في مقالة لي بعنوان (حوار غير متكافئ مع الحرب) ضمن كتابي الموسوم (من هموم الحياة) الصادر سنة ١٩٨٨ ، فقد قلت من منظور كون سكان العراق ثلث سكان ايران مايلي : و ربما كانت نسبة " واحد الى ثلاثة " لنا ولهم من الخسارة البشرية هي الحد الأدنى الذي يوافقنا الذي يوافقنا فالسيولة البشرية كالسيولة النقدية تنفد في المسألة قبل ان تنفد في التلفيقة اذا استمرتا قصيرتا بنية واحد الى ثلاثة) فهذا الكلام ليس فيه خطة عامة و انما هو داخل في باب البديهية مصحوبا بشيء من التنوير و عنصر الاقناع ، وفي يدي كتاب (عن الحرب السوفيتي من ترجمة الدكتور كاظم هاشم نعمة و من اصدارات " دائرة التدريب - مديرية التطوير القتالي العراقية بطبعته الاولى لسنة ١٩٨٧ " وفيه خمسة وخمسون مقالا بقلم أكابر القادة والعسكريين البلاشفة يلحظ فيها جميعا مقام لينين مع التقليل من ذكره في سنوات عبادة ستالين ، ولا يكاد القارئ لتلك المقالات يجد شيئا مستحقا للاهتمام ، الا

ماندر، بعد تصفية قيادة الجيش الروسي سنة ١٩٢٨ فأغلبها فريسات للرياء
الى القيادة السياسية بحسب مزاج شاغلها. ولكن الذي يجوز حمل الاهتمام هو العنف
الذي يبدو في كلام لينين في تغليظه التشديد على استحالة زوال الحروب قبل تصفية
الطبقات فهو في هذا التأكيد الجازم واقف على الطرف النقيض لكل محاولة جدية
مخلصة يبذلها جماعة البيريسترويكا للتفاهم مع الغرب الامبريالية، على ايجاد صيغ
للتعايش السلمي وبحر شبح الحرب. غير اني لا أتمسك بهذا حتى لا أكون مجرما في المحكمة
بأن
ان اتبرع من عندي الخطر الماحق الذي يتهدد البشرية في يومها الراهن لم يكن موجودا
في ايام لينين ولا اضايق المحاور باسقاط عذر قائد مثل لينين في اطلاق الحكم على
المستقبل وهو الذي تصدى لصياغة حياة الناس في الحاضر والمستقبل فان الأمثلة
كثيرة جدا في جريان الأمور باتجاه مضاد لما توقعه سواء فيما يخص مسار الاشتراكية
نحو تحقيق الأماني والتجمع القوي للجماهير حول شعاراتها وأهدافها او ما كان من
رأيه في مصير الرأسمالية نحو الدمار الزوال المحتوم. والواقع هو أن تفرده بالآراء
النهائية التي لا رجعة عنها وأمن بحتمية انتصارها [والحتمية تتضمن معنى القرب
والسهولة لا البعد والاستعصاء] جعله قطب المعارضة الثورية لكل الفئات
التي استصعبت تحقيق الأشتراكية ولولا ايمانه الراسخ الجذري المفروغ منه بجريان
التأريخ على هذه الوتيرة ليس في روسيا فقط بل في اوروبا والبلدان المتقدمة كلها
لما كان قادرا على مجرد الافصاح عن تلك الآراء بسبب بعدها الشديد عن اذهان
القائمين بثورة ١٩١٧، ويلاحظ مما يروى عنه في أيام الثورة انه كان مأخوذا
بعنفوان الجماهير في الأيام الأولى فيقول ان الجماهير أكثرها ثورية ويزداد بذلك
تصديقا لواقعية شعاراته وتخلف شعارات المعتدلين او الواقفين في الخط التالي
لخط الثوري. وليس لنا الا أن نجد العذر بين مزاجه الشخصي الفائر المندفع و
بين اندفاعات الدفقات المغالية للمد الثوري الاول المتزود قوة بانهيار
جبهة الحرب من جهة وتفاقم المشاكل بالداخل من جهة أخرى. فكان لينين في مجمل
هذه الصورة كالسهم الفارق يشق الفضاء باندفاع لا مزيد عليه فليس غريبا أن
تأتي اقواله منسجمة مع مقتضى الحال في الصفوان والحدية وهذا هو السبب، في نظري،
الذي جعل كثيراً من آرائه المجردة في احداث التأريخ اللاحق لا تتحقق بالإضافة الى
أن ذلك نفسه كان سبب امتناعه عن تصديق اي رأي لا يتماشى مع الحدية والنهائية
فيترجمه بأشنع الأوصاف. ومن هذه الحقائق ينكشف كيف ان المترعرعين على حب لينين
وتقديسه يمتنعون من الاستشهاد بأقواله وآرائه التي حددها تحديدا لا يقبل التأويل
الا ما كان منها متوافقا مع سياسة الدولة السوفيتية فيفترض انهم يملكون مفتاح

غير مستقيم فليس يضيرهم او يضير المصلحة التي يتصورونها ان يدعوا ذلك الملخص بعبارة قوية من اقواله فهم في كل الأحوال يدعون انهم ماضون في المنهج اللينيني.

اذ آخذ بهذه المقاييس في نظري الى ما قال لينين وما فصل لا انتقص من عظمة الشخصية كزعيم ثوري سياسي مقدار شعرة، وعقيدتي فيه انه لو بقي فيما عشر سنين اخرى لغربل افكاره على ضوء ما تحقق فهو كان انسانا بعيدا من التحيلات والتهيؤات ومتحررا من (الفكرة الثابتة) التي لا تتغير. ولسنا بوضع نحتاج فيه الى تعيين المدى الذي كان من الممكن ان يقطعه في تعديل وتبديل آرائه وهل كان يبلغ حدا ينتهي فيه الى القناعة باعادة الفلك والحافز الفردي. أنا لا ارجح ذلك ولكني لا استبعده فيما لو عاش عشرين سنة اخرى فانفسح المجال الزمني امامه لهضم شيء كان ثقيلا جدا على مزاجه.. ومهما يكن من شأن الاحتمالات في ذلك يبقى القول الضروري الذي لم أقله بعد:

ان مصلحة الأحياء تأتي قبل وجاهة النظريات وتقام الموتى وهي بديهية في حد ذاتها. ولكن المشهود على نطاق الزمان ان الاحياء قد يفدون الميت بارواحهم وانهم مستعدون - كثيرا وكثيرا جدا - للذود عن جلال النظرية التي يؤمنون بها، الى حد التضحية بالذات. والمنطق النظري يقتضي ان تكون التضحية من اجل عقيدة دينية وراءها شجى الحنة والنار بعد الممات أقرب الى الوقوع وأن يكون (الفناء في الله) عند الصوفي اقوى من (الفناء في فائض القيمة) عند الماركسي، ولكن الواقع الذي رأيته بالعين وقرأته في الكتب يقدم نماذج من الطائفتين تساوت في الحماس للفكرة. لم ازل أقرأ في International Affairs كلاما لرجال ذوي وجاهة وقفت بعدت بهم بعدا هائلا ان يكونوا بروليتاريين يتظاهرون بأنهم من البروليتاريا بانتمائهم الى دولة البروليتاريا، ولم يزل الاصرار على التمييز بين الناس على اساس اختلاف انتمائهم الاجتماعي (الطبقي) من القوة بحيث انه فاق التمييز القائم على اساس اختلاف اللون فلا ابالغ اذا قلت ان الماركسيين (الأصلاء) يعتبرون الطبقية اقوى من الصفات البايولوجية فكنا نسمع بمدى قبول طالب ابوه كان غنيا في الجامعات بالدول الاشتراكية. إن فارق اللون ألصق بالانسان من فارق الطبقة لان اللون ينتقل بالارث ولكن (الثروة) لا تنتقل الى دم الاولاد ونخاعهم الشوكي.. ودامت محاربة علم النفس في المعاهد بالدول الاشتراكية عهودا طويلة على اساس انها بدعة بورجوازية يقصد بها تلفيق دوافع لتصرف الانسان من غير طريق التفاوت الطبقي والتفاوت الاجتماعي

عن سيل الأهتمام الزائد باعماق النفس والعقل الباطن بمبعدة من الدافع الاقتصادي.
ثم اصبح الاصرار على انفار علم النفس منقصة لثبوت كونه قائما على حقائق تجريبية فحصل شئ عجيب في هذا الميدان اذ وجدنا (اذكياء) الماركسيين يدورون حول الموضوع فيأتونه من الباب الخلفي فيقولون ان علم النفس الحقيقي هو علم النفس الماركسي. فيا للمخجل من هذا التمويه الشائه! قرأت لاناس كتبوا في New Times انهم بعدأن ظلوا سبعين سنة يرددون كون الحقيقة التاريخية الكبرى هي الفروق الطبقية اصبحوا بدوار إذ وجدوا بعد الانفتاح ان الحقيقة غيرذلك. قرأت لواحدهم يقول عن نفسه انه ملحد ولكنه يؤمن بأنه ثمرة التاريخ الماضي بكل عقائده وآدابه وعنعناته وانه متأكد من ان خلو قلب الانسان من جزء من (الله) حتى وهو ملحد نقص كبير و يعدد اسماء من شخصيات الثورة - كما اعتقد - اشتهرت بالعنف والقوة فيقول ان هؤلاء لم يكن في قلوبهم (الله).

ياسيدي! قرأت لعلمائكم الآثاريين الجدد كتابا عن تاريخ العراق القديم استندوا فيه الى التنقيبات الأثرية التي اجراها علماء الغرب فأكبرت فيهم - علمائكم - هذه الدقة والبراعة في اقامة استنتاجاتهم ولكن الذي آلمني اشد الألم ان وجدتهم يتكلمون عن المجتمع العراقي القديم كأنه (مدينة عمل) ليس لها هم الا ضم الحبة الى الحبة وهزن العلف فهم لا يبتسمون ولا يغنون ولا يتزاورون في المآتم والأفراح ولا يعشقون ولا يكذبون ولا يصدقون ولا.. ولا في كل أمر ينشغل به البشر. فعلماؤكم، ياسيدي، اسرى او دراويش المقولة المشهورة ان العمل خالق الانسان. وهي ابعد ما تكون عن الصدق فالعمل الاجتماعي مخلوق الانسان وصنع يده وفتقة ذهنه والا صارت البهائم كلها بشرا لأنها جميعا تعمل. لا بد من بشر متميز عن البهيمة ليكون هناك عمل الى التطور والأصح ان اقول: (عمل يطوره الانسان) فالعمل بذاته ليس له وجود مستقل حتى يطور او يتطور فما أقسى وأفدح ان نجتر كلاما كهذا في واحدة من البديهيات لا لشئ الا لان انجلز قاله في واحدة من كتاباته.

ان المناسبة تسوغ لي ان اقول اني قرأت لفقهاء انجليزي اسمه المكتوب بالحروف العربية (داوفد جيت) في كتابه (المعنون (اجرية الفعل). قرأت له: ان من اقبح الاخطاء القول بأن الاغريق (جبل اليونان القدماء ذلك انهم لم يرتقوا الى الفلسفة والمنطق وبقية المعارف الا لأنهم لم يملكوا الجدل. يقصد بذلك ان وجود مرجع مقدس غير قابل للامتحان يحصر الفكر في اطار ضيق محدود بحدود ذلك المرجع المقدس فلا يرد فيه ابدا ولهذا تدور فقهاء دور تطوير فلكيات بطليموس و

~~طوبت مبادئ الفيزياء وانتقضت (الجاذبية) وصارت مزيفة وصار التخيل~~
~~والخيال فلا بد من قبل القول بدوران السماء لكي يكون الولوج فيها من الممكنات~~
~~وهذه حقيقة ثابتة في اليونان هي الحركة~~ يقول الروايات ان المؤمنين

يمنطق ارسطو بقوا مصرين على صدق قوله ان الاجسام تكون اسرع في السقوط
على قدر زيادة ثقلها رغم ان التجربة أثبتت ان ثقلين متفاوتين رُميا من برج بيزا
المائل فوصلا الى الارض في وقت واحد فامتنع على عقولهم ان التفاوت في التأثير
راجع الى مقاومة الهواء التي يظهر أثرها في الاجسام الخفيفة.. وهكذا الى نهاية احوال
~~الاطلاقات~~ باطل يعتبرونه مقدسة.
لا يتسع فيها القول من اصرار السذج على احترام

ان الزمن يا سيدي يخجل الافكار المرحلية فمن اشد الاخطار على الفكر الانساني
أن يفرض عليه رأي محدد قاله واحد من العباقرة في يوم من أيام القرن الحالي أو
الماضي او ما يقوله عبقري في القرن الآتي. العباقرة لهم مكان محفوظ في سجل الخالدين
وهم أحرياء ان يخلدوا سواء اختلفنا معهم في الرأي أو معها جاء الزمان برأي أقرب من
رأيهم الى الحقيقة. والبشر لا يكون منطلقا من قيوده بمجرد ان يكون خارج غرفة السجون
فالقيود على فكره أشد وطأ عليه من قيود السجن لان السجن وقتي ولكن السجن الفكري
يلد أكثر من سجن حقيقي واعتباري. وإنه لأشرف للمخلص ان يكتشف خللا في
فلسفته فيحاول تصحيحه من ان يضيف دليلا جديدا الى الادلة الموجودة في اثبات
صحة فلسفته لانها اذا كانت صحيحة فقد كفاها مقدار الادلة الموجودة. أما أن يؤول
الاخطاء ويستر على النقص ويموه على التضليل فذلك منكر من اكبر الجرائم. وضعيف المرء
دليله في ذلك فانه يستطيع اذ يقيس محاولته لتبرير الاخطاء على تبرير خصمه لاخطائه
فهو بالبداهة يشئ من خصمه اذا لجأ الى تبرير الذات بالتضليل فليشمئز من نفسه اذا فعله.

انه لغريب حقا أن يصل الاصرار على التمسك بآراء فرد بعينه في مجتمع يدعي انه حرم
عبادة الفرد واحل محلها الايمان بالمجموع - وليكن المجموع البروليتاري مضافا اليه
المتفقون - بل قد حصلت عبادة الفرد في شخص ستالين وفي شخص ماو وغيرهما من
اساطين الماركسية ووجدنا مدنا تبدل اسماؤها بأسماء ناس لم يتميزوا بفضل اخلاص أو
انجاز أو فهم على حين خفيت اسماء جماهير المكافحين الذين ضحوا بأرواحهم أو تمت
تصفيتهم فيما بعد جزاء على تمسكهم بالعقيدة. وتميل الظاهرة الى السخرية حين تتبدل
الظروف فتنقلب ستالينغراد الى فولغوغراد او تنزل [illegible] عن عروشها وتعاد
اسماء اخرى الى اعتبارها الذي فقدته في واحدة من [illegible] تحدث الاديبين ناس
هجروا التعرف المألوف الى التعرف الشاذ المستوحى من النظريات وغرائب ما تقول. لقد
وجدت ماركسيين لا يقدرون ولا يحصون غائصين في الاهتمام بانطباق اقوالهم على نصوص

من ماركس او احوال من لينين بأكثر مما يلتفتون الى نتائج آرائهم هم في واقع الحياة وهل هي مقبولة في طبائع المجتمع! هم كالرجل المتدين في اداء صلاته اذ يجاهد في اتقان طقوسها واركانها واخراج كلماتها بنطقها الصحيح ليقينه ان عاقبته في الآخرة مرتبطة بذلك فيالبت الماركسي وحده علة مماثلة في شدة تمسكه بالنصوص وحرصه على التواطؤ معها فهو على اي حال يفقد اتصاله بالمصالح الدنيوية المبنية على الوقائع ويتحرى في الطقوس والنصوص عن ارجحية البطاطة على الطماطة وعما اذا كان مباحا له استعمال سلم جاره بأجرة. وفي هذا القبيل ما نسمعه في روسيا اليوم من جواز اجارة الارض لزارعيها الى عشرات السنين فقد أفتى بها التحايل على منع تملك الارض مع الاحتفاظ ببقاء مبدأ المنع وهي صورة تذكرنا ببعض ما ورد في رواية Animal Farm لجورج اورويل حيث يتحايل سادة الحقل الجدد على منع الخمر باضافة فقرة جديدة الى نهاية المادة القانونية فتصبح هكذا: تناول الخمر ممنوع الى حد السكر وهكذا في بقية الممنوعات.

انا لست بصدد (الطريقة) وتعالي نفخة الدم في الكتابة وليس في منهجي أبدا ان انال من مكانة العظماء الحقيقيين فاذا وجدت احدهم على خطأ - حسب رأيي الذي لا أملك غيره - كان أحق على ارتسام خطوط الخطأ في صورته وليد شعور لا يتصل بالمصالح قطعا وانما هو من قبيل اسى على وقوع لطخة في لوحة الجيوكوندا ويبقى بعد ذلك ان اعاني لهم الناس الذين سيعانون تبعة خطأ ذلك العظيم.

كان عملا تاريخيا نبيلا وضروريا انزال ستالين عن عرشه لان كان مجرما وليس عظيما والا كان جنكيزخان وهتلر وكل مزدة التاريخ عظماء. وكان جميلا ومطلوبا وضروريا أيضا الاعتراف بقيادة وريادة لينين بما له من فضل في ارساء الدولة السوفيتية التي تفتخرون بها. وكان من قبيل حكم البديهة ان يحتفظ ماركس والخلز بمقامهما المحفوظ في محراب التاريخ ولكن:

ليس من الجائز قطعا ان ينصب اولئك (انبياء) وأن تعتبر تعاليمهم او فلسفاتهم او آراؤهم (الهاجات) فيها تكن عظمة وعبقرية الانسان الفرد فليس من المنتظر ان تفيض قدراته الريادية عن مشاكل عصره لتسقى حقول عصر لاحق، وبفرض انه استطاع بنظره الثاقب ان يخترق الزمان الى ما بعد نصف قرن أو اكثر فالمؤكد ان عباقرة الزمن اللاحق اوضح رؤية في واقعهم الذي يعيشونه وذلك لاسباب اربعة حاسمة:

اولها ان الواقع المشهود أوضح واكثر انفراجا للنظر من واقع يتصوره عبقري.

ثانيها ان العلوم والمعارف والخبرة تتضاعف بنسبة هندسية من عصر الى عصر.

ثالثها ان تزايد عدد السكان يوفر احتمال تزايد عدد العباقرة.

رأيها ان التطور التاريخي في كل وجوهه ومستوياته يلد مشاكل وحلولا لم يكن خاطرها حولوا في عصر عبقري طواه الموت من مئة سنة او مئتين.

ما كان لعبقري الصاعقة ان يتكهن في سنة ١٩١٩ ان المتغيرات في السياسة و المصالح ستحكم بحصول تقارب بين دولة امبريالية ودولة شيوعية على حين يكون التنافر قد تأصل بين دولة شيوعية واخرى شيوعية. بل ان لينين لم يمر بوهمه ان تتفق الدول الاستعمارية مع روسيا الشيوعية للقضاء على المانيا النازية الامبريالية الراسمالية ولا سمح لنفسه أن يقبل باحتمال اشتباك دولتين شيوعيتين في الحرب وتتفوق عليها دول هي في عرف لينين طرف النقيض لكل ما هو شيوعي وبروليتاري وانها بحكومة تاريخيا بعادات الشعوب حتى تختفي انظمتها الاستغلالية في مجرى التطور المحتوم.. والكلام في هذا الاتجاه يطول الى غير نهاية وهو في وضوح البديهية التي لا تقبل المناقشة الا من باب المكابرة. وخلاصة القول في موضوع (التوجه الى لينين) انه ينقلب الى الارتداد ضد المصلحة المطلوبة في المراجعة فاذا جاوزت حد الاحترام المحض الى التطبيق العملي لتوصياته وآرائه، فانه من قبيل البديهية ان (عوربا تشوف) في يومه هذا اوضح رؤية لمشاكل بلده مما كان منتظراً من لينين وانه تبعاً لذلك ولكل منطق سليم أدرى بالحل الصحيح لها من لينين فان من تلك المشاكل مقداراً كبيراً وخطيراً لم يكن موجوداً على ايام لينين بل ان قسماً منها، ان لم نقل اكثرها، وليد آرائه وتطبيقاته المستوحاة من الماركسية ومن اجتهاده الشخصي.

غير ان لنا معياراً أدق وأصدق من مجرد معيار الرأي لمعرفة ما هو صالح وغير صالح من تطبيقات الاشتراكية وهو رأي جماهير الشعب الذي لا تأويل فيه. واول خطوة في هذا المعيار هو اقناع القيادة من فوق النظام المطبق منذ الأدهار والادهار على انه انجيل جديد لا يقبل الامتحان والا فلن يكون البيريسترويكا والغلاسنوست الا تقويما اعتباريا في بعض مواضع الحلقة المفرغة /Vicious circle/ التي تدور فتصل وتعيد الى نقطة البداية من المشاكل المتسلسلة المتناسلة بعضها من بعض. انا لا أقول بترك الحبل على الغارب للعبث بنظام قائم له شرعية كشرعية النظام السوفيتي القائم على ثورة شارك فيها الغالبية العظمى من شعوب روسيا وانما الذي أقوله هو ان الثورة ليست أكبر من الشعب بل لا تساويه ولا تقاربه في المقدار فالمفروض أنها وسيلة حقق بها الشعب في وقت من الاوقات ما كان يرى أنه مصلحة لعامة الناس في صياغة بروليتارية فهو بهذا اراد مضمونها لقيوده وليس قيداً يربطه باكبة والنعيم المنصور سنة ١٨١٥ فالمعول عليه هو خيار الأكثرية في معرفة ما هو واجب عمله

فالعمل الأكثرية تختار ان تجوع و أن تعرى بعض الوقت او أن تمشى على القدمين بلا سيارة، فقد فرضت عليه المذلة بلا اختيار فى ايام ستالين و اغلب الوقت بعد ذلك !! كل الماضى فى تأريخ اى شعب من الشعوب هو تراث فقط وليس حياة نمارسها اليوم و عنا بالضرورة و على سبيل الحتم ؛ والتراث بعضه كريه و بعضه جميل فالجانب الجميل منه باحداثه و أشخاصه يبقى متألقا فى الذاكرة و دافعا الى طلب المزيد من التقدم و اطايب الحياة مصحوبا بالهداء النفسية و عرفان الجميل للارواح الراحلين المخلصين .

و الناس فى معتاد الأحوال أعقل من ان ينبذ شيئا جميلا ورثه من الماضى فما رأيت أحدا يحرق بيتا من أبيه الا اذا كان الوارث مهووسا أو تحكم مهووس فى عقله او ضايقته احوال لا طاقة له باحتمالها فتصرف كالمجنون و ما هو بمجنون و لكنه مقهور يتساوى عنده العقل والجنون . و رأينا فى ذلك نماذج كثيرة من فردية و جماعية فوجدت آحادا أحرقوا أنفسهم خلاصا من تحكم اهلهم فيهم و وجدنا الفلاحين الروس يقتلون بهائمهم و دوابهم بالجملة فى بعض سنوات مابعد الثورة ، و تذكر الرواية فى عودة العشرة آلاف يونانى بقيادة زينوفون أن عشيرة برمتها أحيط بها فرمت بنفسها من فوق ذروة عالية رجالا ونساء و أطفالا . ان لنا فى مسار التأريخ صورا هائلة لا تخلى من نزول الكوارث بالشعوب على يد الطغاة المجرمين فلنسمح لهذه الشعوب أن تستعمل حريتها على الوجه الذى يرضيها و ليكن من ذلك أن تلحق بعض الأذى بنفسها بأرادتها فسوف نداوى نفسها من آثارها على عكس ما اذا كانت مغلوبا على أمرها فهى تحمل جروحها و تضطر الى انتظار الدواء من يد جارحها وشتان مابين الحالتين..

ان انسانية الانسان مرتبطة بحرية الأختيار حرية منضبطة متحضرة و لا يمكن ان نربط بالخضوع المنضبط المتحضر !! منذ بضع سنين أضرب عمال المناجم فى ويلز ببريطانيا و اعتصبوا فمنعوا الحكومة نفسها من استثمار تلك المناجم ، و دامت الحال اكثر من سنة — كما اتذكر — و هم يتقاضون رواتبهم ثم انتهى اضرابهم على نحو من الأنحاء بلا دم و لا اعتقال . و لربما كانوا متعنتين او متجاوزين حدود المصلحة القومية فقد بلغت الاضرابات مئات الملايين من الدولارات كما أتذكر و لكن الأضراب كان قانونيا فهو بهذا الاعتبار حق أقره النظام الأجتماعى على نفسه و باختياره فلا لوم على العمال فى ممارسة حقهم و لا يكون عليهم لوم اذا تنازلوا عنه فى بعض الأحيان باختيارهم و لكن اللوم كل اللوم عليهم و على المجتمع البريطانى اذا حرم العمال الدفاع عن حقوقهم بوسيلة قانونية فعالة يستطيعون بها ان يقفوا بوجه الحكومة فى قوة و ثبات و لا يرتعدوا ثباتا فى حق الأضراب اذا لم يكن مصحوبا بصرف الأجور خلاله طالما الأضراب قانونيا و نقل الى

شيوعي عراقي عريق في شيوعيته انه كان في موسكو في بعض سنوات حكم جوزيف فأضرب العمال في بعض المصانع واعتصموا فيه فحاولت الحكومة اقناعهم بالعدول عن الاضراب عن سبيل الزعم انهم أصحاب المصلحة فكيف يضربون ضد أنفسهم ؟ ولكنهم استمروا.. فما كان من الحكومة الا أنها في يوم من الأيام بعثت قوة مصفحة اقتحمت بها المصنع فأنسق من انسق وقتل من قتل وسيق الاحياء منهم كلهم في عربات سوداء كبيرة مسدلة الستائر فنقلوا الى حيث لم يسمع بهم أحد . ان ظاهر الأمر يقتضي ان تكون الصورة معكوسة فيضرب العمال بحريتهم في دولتهم ويساق العمال في ويلز وغيرها من البلاد المحالفة الى المصير المجهول . والعلة في انعكاس الصورة على الشكل المتقدم هي ان هناك اخيلا في دولة جوزيف فوق قدرة الخيلة واكرم من حياتهم ووجودهم فليست هناك كفالات دستورية وقانونية تصون حياة الشخص وحريته ومعتقداته من جمودت/ الأنجيل المقدس على حين لا يوجد/ من هذا الانجيل في القانون الانجليزي الذي ينظم العمل فهو محصول تطور معتاد لا قدسية فيه كما يتطور العشب الاخضر الى قش أصفر في بضعة أشهر وقد بعض البذور الفاجئة للنمو في عام قادم .. ولا ظل للحقيقة في قول من يقول ان هذه الحقوق منحت للعامل الأنجليزي من باب التحذير ابقاء على نظام الاستغلال فهو كلام متقوض في ذاته تماما كالكلام الذي يحاول تبرير سكوت العامل الروسي او البلغاري بدعوى أنه صاحب العمل وصاحب الحكومة فكيف يعترض على نفسه بالمطالبات والمظاهرات والاضرابات !! فالنظام الانجليزي بكل عيوبه ومزاياه إنعكاس لمزايا وعيوب المجتمع الانجليزي المبني على حرية الملك والرأي والتصرف ضمن حدود قوانين تقررها الأكثرية التي لا تزيف فيها . مهما يكن من علمانية النظريات والآراء فأنها جميعا ستؤول الى صفة (التراثية) كل البدائع العقلية التي رشحتها عبقرية فلاسفة اليونان او اوروبا او مفكري الشرق فان واحدة منها لا تجد لنفسها اي حيز في التطبيق في هذه الأيام ، فقد نسخت بما هو أبدع منها .

تتداعى الى فكري امور لا نهاية لها من مجرد التفكير في عنوان (التوجه الى لينين) فاذا ركزت فقط على فقرة واحدة جاءت في نهاية الصفحة ٤٤ من الكتاب تقول: (والفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية) وقد نقلتها قبل بضع صفحات وتنتهي بهذه الجملة: (تستند استنتاجاته على تحليل الوضع التاريخي الفعلي) فالذي هو واضح لعيني من (تحليل الوضع التحليلي) الذي التقى به في كتابات لينين في الفترة مابين ١٩١٧ وبين ١٩٢٤ هو انشداد لينين بعنفوان طبعه الى بناء احكامه على اشد الاحوال والحقائق تأزما وضيقا وتوترا في أيامه فكأنه يكتب التاريخ بسهم محموس في بانع نار و يستعرض به عالما خارج دنياه الاشتراكية كله شر وظلام والتزام . إنه يصور الناس

من غير البروليتاريا وصفا لا يمكن ان يكون البشر المتصف به قابلا للتطور والتثقف و التعلم والتفتح لا يقلق في ذلك حتى الاشتراكيين من شاركي الدولية الثانية الذين لا يتوافقون مع رأيه. فكيف نستطيع ان نتصور ان للجامعات الغربية تقاليد محترمة لا تنفك عنها وان للمحاكم في بريطانيا، مثلا، سوابق قضائية لا تستطيع الامبراطورية كلها ان تزحزحها عنها فالجامعات والمحاكم والمؤسسات الدينية والدنيوية في البلدان البرجوازية الغنية كلها اماكن شيطانية في كتابات لينين. والمقصود غالبية كتاباته واشارع الرئيسي في تفكيره وليس شذرات قد تتناثر هنا وهناك في المناسبات فالشيطان نفسه يخطئ بعض الكلام الحين في تخمين حجته القائلة انه خلق من نار وان ادم من طين.

من دون أن ~~أكون~~ انتقص من خطورة لينين اي شيء أقول ان خطورته في انجاح الثورة كانت وقت جريان الثورة نفسها لحاجتها الشديدة والحاسمة الى ثبات لينين الذي لا يتزعزع ايمانه المطلق بها وبنفسه فلم يكن بالامكان نجاحها قطعا من دون هذا الحسم والجزم والحدية في مواقف قادتها. الاشتراكية كانت مقحمة على طبيعة الثورة من جانب لينين وبعض أصحابه الذين لولا ارتباطهم بلينين لما استمع اليهم أحد. بعد النجاح التمهيدي واتكاء لفرض الاشتراكية على الحركة كلها وبعد اجتياز مرحلة الخط المباشر عليها صارت خطورة لينين في الهيمنة على مسارها ولا سيما من جهة التصدي بجرأة لتصحيح ما قد يحصل فيها من انحراف او لتعديل ما يظهر عليها من وجوه النقص في التطبيق. وكان برهنه المتزايد عائقا خطيرا في هذا الصدد حتى انه لم يستطع ازاحة ستالين من مواقع مسئوليته. بعد وفاته ثبت بالدليل القطعي انه فقد كل خطورة عملية فقد استحال على اي انسان آخر في شخصه ذلك الزخم اللينيني الهائل الذي كان كفيلا بايقاف الخطأ عند حده وتعديله بما هو اوفق. لم تكن بأحد جرأة ليفتح فمه بكلمة تشير الى وجود خطأ فيما يجري فصار الركون الى الستر على الخطأ والنقص وصار الالتفاف حول الانحراف والنصوص والشعارات بالتمويه والتحريف والارهاب حتى استقرت شخصية ستالين بروفو كما في مركز القيادة. كل اجتهاد لينيني وافكاره ووصاياه لم تكف لردع الانحراف عن اي شيء مهما كان صغيرا فكل ما اشتهاه المخرف الاكبر صار دينا وانجيلا جديدا حل محل اللينينية والماركسية والجماهيرية وجميع الكلمات الهائلة التي تتناثر بالياء المشددة لتصب في كلمة واحدة هي (الستالينية) لتحكم روسيا وعالم الثورة البروليتارية لأكثر من ربع قرن واستمر شبحها رغم الفظاعة التي احدثتها بها حذو كابوس مهيمنا على السياسة الروسية حتى ظهور البيريسترويكا والغلاسنوست. انتهى دور لينين بموته بل كان منتهيا باشتداد المرض عليه وقصور عنفوانه المتدهور عن أن

يكون كافيا لدفع الثورة نحو الاتجاه الذي كان يريده لها. واليوم اذ تعلنون عن وجوب اعادة البناء فليس ذلك بفضل لينين قطعا بل انه برغمه و باتجاه مغاير للحدية المأساوية التي اتسم بها طبعه و وسم بها الثورة أيضا. إنكم اليوم تتعاملون مع دنيا كان لينين مصرا على هدمها باعتقاد انها منهدمة في ذاتها تأريخيا على حين ان غالبية الشعوب السوفيتية من غير المستفيدين من البيروقراطية تميل الى التمتع بالقمح الممنوعة عليها وتريد الأخذ بالاساليب الديمقراطية الحقيقية التي لا تأويل فيها. أقرأ لكتّابكم في عامة الشعب في المجلات والصحف التي تصلني في الأيام الأخيرة رغبة صارخة في تعديل الاسس التي أقامها لينين للاشتراكية وصار تحريفها فيما بعد.. احداثهم رغبة أكيدة صارخة في الكف عن مدح ما هو مكروه والتظاهر بكراهية ما هو محبوب. يبدو أنهم شبعوا حتى القرف من غمس كيرة الخبز في قشدة الشعارات وعلى الايديولوجيات و تفصيل الملابس على مقاسات الحلول الجذرية والطبقية وركوب سيارات اشتراكية ~~في بلادنا نماذج شتى تميزها عن غيرها بكثرة ما تلتوي أو تنكب محاور محاورها فتنفصل عن هيكل السيارة أو تبقى معلقة بها لمفاصل المكسورة تماما تفوق الحركة بالمرة~~. انه لمن الكوارث الكبرى في شعب من الشعوب ان يبقى الى نهاية الزمان مقيد الفكر والاحساس في نومه ويقظته بالفرق في محاسبة الذات: كم انتجنا اليوم؟ كم كان ممكنا زيادته؟ كم طال بنا الوقت؟ كم هو من فضل تعاليم ماو او انخار او زدانوف؟ كم أقامنا من طريق نقطعه حتى نصل الهدف الذي رسمه الحزب؟ هل هبوط النبيح تبدو اولا تبدو.. وهل- ام انه؟ متى استطيع في حياتي زيارة باريس بدون رقيب حكومي؟ ما اشهى لدائن نيويورك!!

اذكر ما قرأته في رواية باسترناك المشهورة قولا لأحد نجومها في بعض أيام ثورة اكتوبر ان مرضا غير ملحوظ قد انتشر بين الناس هو حدوث تزيف دموي خفيف في اماكن من اجسامهم نتيجة طول مدهم لما يكرهون وشتم ما يحبون. قد يكون هذا صحيحا أو قد يكون من خيال الروائي ولكن اليقين الذي لا يأتيه الشك هو ان بقار الأفكار شدودة على مدار الأثير الى بؤرة ضوئية مزغللة للعين فوصفحة الماضي المنطوي يصيب العقول بالكلال والملال فيفقدها القدرة على او الحماس للنظر بطلاقة و جرأة الى الحاضر والمستقبل فكأنما تنظر الى الاشياء من خلال نظارات غير حقيقية على درجة قوة العين.. لقد وجدنا في بلدنا ان المتدينين الذين يبالغون في استكمال شرائط الوضوء يصابون بالوسوسة فلا يكادون ينتهون من غسل انفه الا بشق النفس. وقد حيرت المتخلين من عامة اليساريين الذين أصبحوا أسرى لطقوس الشعائر السياسية تزيغ عيونهم وتضطرب حركاتهم عند التقائهم بالناس لشدة احترازهم من تحية و مجاملة لا تستسيغها الايديولوجية

الطبقية ، وحين ناداه مشحونات بالافكار الثورية رحت الى حفلة عائلية فلما وطئت أقدامهن عتبة الباب قالت إحداهن وهي تضرب الأرض بقدمها : سنهدمها !! فما أجملها من نية في الشكر على المجاملة . وهكذا شأن البشر في كل حفل وباب لا أمانة له من أسر العادة وقبضة التقليد . ان التاجر البرجوازي لا يراجع معهد ا مقدساً ليرى إن كانت تجارته موافقة لدروسه على حين يختنق ممثل التجارة في دولة أيديولوجية من تهيب اللحظة التي يوقع فيها على اتفاقية عقدها مع جهة (متبرجزة) فهو محكوم بخيال الشعارات الثورية التي تلح على تنقية المعاملات من (الاستغلال) وغرامات (فائض القيمة وما الى هذه الأ النظرية التي تقتل المعلمة في مهدها . يتساوى (تحليل الوضع التأريخي) مع تنظيم حفل مصارعة ، مع عقد صفقة بيع ، مع انجاز مشروع دواجن ، مع خطبة فتاة ، مع الشروع في السفر الى اى مكان ، تتساوى كلها مع غيرها الذي لم نتذكر في أنها جميعاً يجب أن تتم بسلاسة ودون عقد كوابح وموانع من التدقيق كي يتم إنجازها على وجه منسجم مع الطبيعة البشرية العنونة .

اسمح لنفسي أيها الرئيس غورباتشوف ان اتوسع في شرح رأي بما يقرب من القناعة أو ما أريده لك من الوضوح فأقول : ان إقامة الدولة السوفيتية سنة ١٩١٧ كانت بطبيعتها مثل تحويل مجرى النهر عن وجهته ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا في ظروف سنة ١٩١٧ اذ بلغت حالة الخذلان والهزيمة حدها الأقصى في تكريه الناس من النظام القديم فتمكن لينين بعبقريته الفذة من دفع كل القوى نحو تغيير مجرى النهر . بعد ذلك الفوز الأولى بدأت صعوبات ادامة النهر في الجريان لأنه تحول عن مجرى محفور من القديم الى حيث لا يوجد مجرى يسيل فيه النهر فكانت عمليه أشبه بعملية حفر دائم لشق قناة جديدة فلم يكن من المتصور او المقبول اعادة وجهة النهر نحو المجرى القديم . فالصعوبات التالية لنجاح الثورة حتى يوم (اعادة البناء) نشأت من الفرقة بين واقع موروث وبين افكار وتصورات ومناهج وقيم وسلوك جديدة تطلب واقعاً يلائمها فليس صحيحاً ما يزعم من ان الثورة البلشفية كانت حتمية تأريخية تهيأت لها امكانات النجاح و أنها جاءت محققة ما كان الواقع يطلبه فهي اول ثورة طبقية بمعناها الكامل و الصحيح واول ثورة لم يطلبها الواقع إلا بمقدار ما كان لينين وحزبه معتبرين

جزء من ذلك الواقع .. انها ثورة على الثورة الأصلية طلبت ما يشبه المستحيل بخلق دكتاتورية البروليتاريا وقد بقيت هذه الدكتاتورية مستحيلة حتى يومنا هذا فلكي يكون العامل أو الفلاح حاكما يجب عليه قبل كل شئ ان يفقد صفة الكادح. اما ان يكون مجموع الكادحين قادرين على الحكم فهو خيال آخر أحكم خلقه في الشعارات والكتابات فقط باعتبار الحزب البلشفي وكيلا عنهم في الحكم. ان عملية حفر مجرى جديد يوهم بأنه يحتوي ماء النهر القديم كله مستمرة الى كتابة هذه السطور وهي محكومة بمظاهر لا تنتهي من الغربة مع الواقع المألوف الذي يعيش فيه الناس المتادون من استراليا حتى الاسكيمو في الجرينلاند. ومن مظاهر هذه الغربة الرجوع الى الارشيف الثوري باستمرار للعثور فيه على صيغ مرنة يمكن من خلالها التظاهر باتباع تعاليم ماركس ولينين في كل اجراء يقتضيه روح العصر في بعد ملحوظ مع لبس لباب الماركسية اللينينية. او باتباع صيغ جديدة تقتضيها ضرورات الفصل مع تناسي اصطدامها في العالم مع أناجيل البلشفية - مثل ايجار الأرض لمدة طويلة - والانتخابات الأخيرة تفسرها مع كونها طفرة الى الأمام بالقياس الى ما كان يجري قديما هي صورة من صور الجمع بين المتناقضين في عملة واحدة بوجهين في انتخابات حرة كحرية الانتخابات في النمسا أو كذا وكذا ولكنها لا تستطيع المس بأي من اسس النظام الطبقي الاشتراكي المحفوف بصيانات المنع والقهر. لقد علمت الدنيا ما صنعته الصيني اخيرا - من نحو ٥٠ يوما - مع المطالبين بالديمقراطية، وارجو من اعماق قلبي الا يحدث عندكم اي شئ يعيد الحالة الى ما قبل اعادة البناء ولكني اعلم أيضا ان الآلة الجبارة التي ادامت سيطرة ستالين ومن جاءوا بعده من جماعة التحجر لم تزل موجودة وإنها مستعدة ان تميط ساط الديمقراطية والانفتاح اذا بدرت بوادر خطيرة تطلب تغييرات جذرية.. اعلم هذا وأكثر منه امورا واحتمالات تفوق قدرة أنصار اعادة البناء في احداث التغيير الذي يطلبه عامة الجماهير، وأعلم فوق هذا ان هذه الآلة الجبارة فاية آلة مشلولة في اي مكان من العالم تخضع لضرورات السياسة الدولية وتوازنات القوى أكثر بكثير وكثير جدا مما تخضع لرغبات الرعية، وأعلم امورا أخرى كثيرة ويعلمها غيري، تترك بصمتها على حسابات الربح والخسارة ومواقف الاذعان والتصلب من الحركات السياسية والاقتصادية والدينية وكل جهة متصورة لها وزن في الأمور العامة، ولا اعدم لحظات أتصور فيها نفسي مسئولا مثلك او مثل رجل كبير آخر فأقدر فيها مشقة التجرع ما عسى كنت خليقا أن اعمله عندئذ، فلا اناقش الموقف المتشدد المنطوي على اخطار خطيرة الا في حالة واحدة هي أن تتساوى نتيجة المرونة مع نتيجة التشدد حسب ظاهر الأمور، ذلك أن المرونة في تلك الأحوال تكون تواطأ للاستسلام ويكون التشدد رغم ما فيه من مخاطر هو الموقف الوحيد الذي أقول فيه الفوز او الهدنة في منتصف الطريق. لكني يا سيدي ملزم ببيان رأيي على أكثر ما يكون من الوضوح فانا لا اشكل برأيي خطرا على مصير اي شئ في هذه الدنيا فاذا كان قصارى رأيي أن ابارك ما هو

واقع فقد انتفت الحاجة اليه ابتداءً . وبفرض ان عملي هذا لا يخرج عن ان يكون حوارا مع النفس بعيدة كلية عن ان يكون له أثر في الاحداث سواء عندكم او عند الجار او عند اهل بيتي فانه أشرف له وأكرم لي ان اقوله بلا مواربة وأكشف به الوجه الحقيقي للموضوع الذي تناوله باستخلاصه من خلالات التعبيرات والتهيئات الباعثة على قناعة العامة . فبرغم من هذه الحقائق الاعتبارية اقول في راحة ضمير تامة : ان التعلق بشبكة المباديء والايديولوجيات المقدسة الموروثة له صورتان بنتيجتين مختلفتين الى اقصى حد ، فاذا مثلنا لهذه الشبكة بنسيج العنكبوت فارغ بالنسبة للعنكبوت تفرط هي الوسيلة الوحيدة الفعالة والمضمونة لاصطياد القوت من فراشة وحمل وغيرها . وتمثل دور العنكبوت في المجتمع الانساني عامة ، الجماعات المستفيدة من دوام الأحوال وتمثل عندكم البيروقراطية وأصحاب الامتيازات من الحزبيين وما يتصل بهما من الحواشي . ويمثل دور الضحية العالقة بالنسيج مجموع الناس في بلدكم وغير بلدكم من ~~الاوطان~~ البلدان المبتلاة بحكم الطغاة . و يعتبر من الخيوط القوية في نسيج الأصطياد الرجوع الى اراء ناس عبروا هذا النسيج في وقت لم يكن لهم فيه خيار آخر الا التخلي عن الثورة ولم يكن لهم فيه فهم من نوع آخر للتأريخ وتعليل الاحداث الا ما يكرهونه من الارتباطات البرجوازية والاقطاعية والكهنوتية ولا أجد ما يحملني على الشك في أنهم كانوا اول الأمر يرون في كل خيط يضيفونه الى خيوط الشبكة زيادة قوة في الوسيلة التي يتم بها خلاص الناس من اباطيل الشياطين التأريخية ، وانه بمثابة الرشاء الذي يصل به الدلو الى الماء لشاربه حتى اذا تأصلت الثورة بدأت الخيبات من الآمال المنعقدة تتلاحق وكان الوقت قد انقضى على تدارك اسباب الخيبات الا بزيادة الخيوط في النسيج . وعارض لينين ، خالق الثورة الطبقية ، مانعاً كلياً من المحاولة الحذرة لتجنيب الناس الآثار السلبية لأهداف غير قابلة للتحقيق . وكان المظنون قبل الثورة وفي يومها الأول انها من قبيل الثمرة الناضجة لا تحتاج الا مد الذراع لقطفها فقطفها ستالين . فكان بحق هو الوارث التأريخي لها لا الشعب السوفيتي ولا الحزب البلشفي ولا اي وارث شرعي آخر يتلقى نصيبه من حكم محكمة عادلة لها قانون مفهوم . وكان ستالين بتجرده من الرحمة وانعدام الانصاف خير من يقوم بدور المهندس للدوام على شق القناة الجديدة لمجرى التأريخ فكان بحق صورة مكبرة للعزائم القطار الذي كانوا يُعبدون ويُسخر الشعب كله لبناء اهرامهم المحيرة في وقت واحد فهو إله شرير على مقياس القرن العشرين يستهزئ بالصفوف المتقدمة من مثقفي عالم اليسار (الثوري) ووراءهم عمار انصاف المثقفين وعشرات الملايين من سائقي هذا الكوكب ، كلهم لسان واحد ونغم متصل في تمجيد ربهم المعبود وتحميد سبيلهم الى النعيم . الا ملايين من سخرهم للعمل الميت وملايين الفلاحين الذين قيرهم مع اهاليهم في قطعة ارض يحرثونها بكرامة على مزاجهم ، فهؤلاء صاروا حطبا انبعث منه الدخان الذي كان يتسبب في نزوح قطرات من دموع عبثية الدخان . لقد يستمر ستالين بنجاح باهر في شق القناة بل كان قادراً على توسيعها لو شاء فهو ستالين يقول للشيء (كن ! فيكون) ويتمرغ على تراب نعليه الوف العباقرة من الكتاب والفنانين والمفكرين

والمفكرين - لعنهم الله، يحرفون تشييد الاشتراكية في تدشين (الالوهية المادية) التي تمثلت فيه. ولو شاء لاستطاع ان يمزج لينين وبقية الماركسية علنا وجهرة بدليل انه استطاع في تمام اليسر والسهولة ان يفرغ الثورة من كل محتوى ويحطم الحزب تحطيما مذلا ويعتبر الشعب كله قطعان غنم ويصرح الوف المخلصين بتهم وهمية او بلا تهمة اطلاقا ثم يأمر ملايين الثوريين في الداخل والخارج بالركوع فيسجدون !! لكنه كان ذكيا فركب مراكب الماركسية والثورية والجاذلينين يسوقها حيث يشاء، وعلى النحو الذي يشاء، فهو في هذا مثل دور المتفضل على الشاة بعدم ذبحها وهي يقصد الاصلاح ضروعها. بعد موته خفت قبضة الحكم ولكنها بقيت قادرة على عمل ما تشاء، انا لم يكن بفضل قدرتها الذاتية فبفضل انقياد الشعب كله عن سبيل قانون القصور الذاتي لاعتياده على العيش بلا إرادة. واستمر حفر القناة طول الوقت حتى هل يوم لم يعد الاستمرار فيه مأمون العاقبة بما حصل في الدنيا من تطورهائل في كل الوجهات وأصبح تجاهل الواقع بوجهه القائم في كثير من مناحي مجتمعكم وبوجهه المبتسم في حواركم على شطآن ~~البلطيق~~ البلطيق ضربا من خديعة النفس وتقيض لحسن الحظ البلشفية والصوفيتية ان برز رجل مثلك ورفاق لك مؤمنون معك بالواقع الجديد وضروراته كي يفتحوا عيون اهل الدار في الوطن الاشتراكي على حقائق الدنيا الواسعة لمعالجة الحالة التي آل اليها الواقع بطول تجاهل الحقائق واجترار صيغ اصبحت أثرية - اقولها أثرية وهي لم تكن قط واقعية - وهناك تفاصيل لانهاية لها في كل شيء ضمن محتوى الاشتراكية الماركسية في التطبيق عندكم لا يكاد واحد منها يجري التعامل معه حسب مزاج الانسان، ابن الطبيعة، استعيرله مثالا من خارج روسيا في بلد يطبق شتاكم اشتراكية ماركسية واقصد به الصين: فقد قرأت ريبورتاجا مصورا مشوقا رائعا في صحيفة معنى بها يصف إنجاز الشباب الصيني تسلق قمة (اوبست) من داخل بلادهم لان الجانب الهندي غفل شيء في هذا الريبورتاج جميل ورائع حتى يبلغوا مسافة المئتي متر الأخيرة الى قمة الجبل فيمضي الريبورتاج ليصب ماء باردا على حماسنا وانبهارنا ليقول: ان هؤلاء الشباب خطوا خطواتهم الأخيرة المنحدرة حسب تعاليم الزعيم ماو.. ولو استعصى متسلق الجبل تعاليم ماو في تلك الارتفاعات الشاهقة لزلت قدمه الى قعور الوديان.. وهكذا شأن التعامل مع حقائق العصر التي تتلاحق فيها المستجدات فهو يخضعها بالرضوخ المتأثر الى ارشيف الراحلين يستمد منه تبرير عمله.

لو تصورنا في الخيال ان ماركس اعيد الى الحياة بكل قابلياته فانه بلاشك يحتاج بعض الوقت حتى يتفهم ماهو جار على ساحة هذا الكوكب الذي ترك منذ أكثر من مئة سنة ولا يقل لينين استغرابا عنه وهو يطالع شيئا ما توقعه قط.. وستتعب كثيرا حتى يستوعب الأحوال التي فرضت اعادة البناء والغلاسنوست: سواء كان الموضوع المتداول على أيامنا قضايا علمية او فلسفية

او سياسية او اقتصادية او من اى صنف كانت فان ابن هذا العصر له الحق ان يكون استاذ الاجيال الماضية وكشف اخطائهم وتصحيح هفواتهم وكل نواقصهم الا أن يتناسى عليهم الا في شأن الدين الذى له صفة الديمومة . بل ان الدين نفسه يضطر الى تبديل مناهجه حسب مقتضيات الزمان والمكان والاجواء الناس ، لكنه على اى حال يتميز عن شئون الدنيا بارتكازه في الأصل على مبادئ غير دنيوية . اسارع فاسبق قلمى لاستعير من الصحافة ٥٠ كلا ما يقتضيه هذا المقام فقد جاء فيه بصدد التوجيه نحو اعادة البناء ما يلى: (و كان من الواضح ان التزعيم والترقيع التجميلى ليسا بكافيين) وليس من شك ان الرجوع الى لينين وماركس في نصوصهما المحددة يتجاوز ضرره حدود الضرر المتأتى من التعجيل لانها نصوص تحكم بداهة الاشياء ان الزمان تخطاها الى غيرها وارجو لك التوفيق فيما تختار .

بعد التوجيه الى لينين نصل الى عنوان جديد هو :

برنامج أعد بعناية وليس اعلانا طنانا

وهو يستغرق ١٧ صفحة من الكتاب يتضمن نقاطا غير قليلة تستوقف المتأمل ، أترك أغلبها لتعذر الانتهاء من كلها تعليقا ونقدا وبيانا في وقت مقدور عليه .

الى كلام خاطف في جملة وردت بصدد موضوع العنوان تقول : (بدأت مجموعة من قادة الحزب والدولة تحليلا شاملا لحالة الاقتصاد ، وأصبح تحليلهم بعد ذلك اساسا لوثائق البيريسترويكا . لقد صغنا الافكار الاساسية ..) .

ربما كان ما فعلته المجموعة المذكورة هو الحد الممكن المتصور في حالة دولة كالاتحاد السوفيتى تنحصر خبراتها في اشخاص مسئوليها الا اذا كان الموضوع يتطلب الاستعانة بالتكنيك الأجنبى او حالات نادرة لا تخطر على الذهن . فالملحوظة الاساسية ان هذه المجموعة من الحزبيين والمسئولين الحكوميين هى نفسها جزء من المشاكل التى نجمت في الاقتصاد وغيرها . ومما لاشك فيه ان الارتباط الايديولوجى بالاشتراكية وفكرة الطبقية وتصورات فائض القيمة والاستغلال يحد هذه المجموعة واية مجموعة اخرى مماثلة ضمن حيز محدود من حرية الاختيار لما هو ضرورى من طرق العلاج فان هذا الارتباط نفسه كان من الاسباب الكبيرة التى دفعت القادة والمسئولين الى تخطيط الاقتصاد والاجتماع والثقافة منزهة من شوائب البرجوازية والتفاوت الطبقى ! فالمنتظر ، والحالة هذه ، ان تكون الدنيا المحكومة بالحزب الواحد صورة مختلفة للمجتمعات التى تأخذ بغير الاشتراكية الماركسية فيكون من باب البديهية ان تدرهم وتكفر الاحوال في سويسرة والدانمارك بقدر اشراقها وازدهارها في بولونيا وبلغاريا وان تكون برلين الغربية مغلقة الابواب على سالكيها اذا كانت برلين الشرقية مفتوحة الابواب على مصاريعها .. وان تكون الصحافة مقيدة بما يكتم النفس في الذبح اذا كانت صحافة رومانيا متمتعة بأقصى حرية وهكذا في كل مناحى الحياة . لست

أشك لحظة في صدق نية هذه الجماعة وإخلاصها الفاعل للعمل الذي تكفلت به في البيريسترويكا ولكن لست أشك لحظة واحدة أيضا ان تفاصيل الحياة في السوق والحقل والمعمل والملابس والبيت والشارع والمدرسة ودور اللهو والمقاهي وحوانيت البقالة والبزازة والعطارة وصيغ الأحذية ... الى نهاية قائمة الوجود الاجتماعي لا يتصورها ولا يحيط بها ولا يقوى عليها ولا على متطلباتها اية مجموعة من البشر يدرسون الشاكل في الغرف والقاعات فان استعانوا بالمتخرين ومتسقطي الأخبار وجامعي الحوادث فأغرقوهم هؤلاء بفيوض المعلومات لاستحال عليهم ان يستوعبوها ويتذكروها فاذا ذكرتهم الكمبيوترات استحال عليهم ادراك الترابط الحي بين جميع مناحي الحياة ومرافقها المتمثلة في تلك الأكوام من المعلومات التي حوتها الكمبيوترات. فاذا كان خيط الدوبارة صالحا وكان نقل الكيول فاسدا في السوق كان ذلك دليلا على حالة غير صحية في الاقتصاد بانهاء الشريان الذي وظيفته ان ينقل المواد الضرورية لدوران النقال. ويستحيل على الموظف الحكومي وعلى الشخص من خارج مصلحة التقاسل ان يفكر في توفير كل ما يحتاجه المجتمع ويكون الموظف في دول الثورات والايديولوجيات اقل الناس صلاحا لكفالة حاجات الناس فهو اولا يخاف على روحه من خطأ يرتكبه البشر في العادة ويتوجس من اتهامه بالتحيز ويفتقد الحماس بعد ذلك من جذوة اجتماعية يمكن ان تخلق له خطة ولا تعود عليه بأية منفعة. والواقع ان المشتغلين بحاجات الناس ومصالحهم يتفاوتون من حيث الكفاءة والحرص، بشكل عام، الى المراتب التالية (مع ملاحظة تفاوت آخر مبني على درجة التحضر):

اول مراتب الحرص والدقة والكفاءة واشدها أثرا تبدأ بالفرد الذي لا شريك له فحرفته التي يعيش منها جزء من حياته. لقد رأيت الفلاحين يعزون دوابهم ومواشيهم كمعزة الأولاد ورأيتهم يبكون ويلطمون لموت بغل يحرث أرضهم. ويتناقص حرص الفرد بوجود شريك له في المصلحة. والملحوظ طبعاً ان الفرد الواحد نادرا ما يستطيع اقامة مصالح ضخمة كمصنع للطيارات، مثلا، وهذا موضوع آخر نتجنب الخوض فيه.

ثاني المراتب تمثلها شركات غير حكومية ولا تشترك في حيثياتها السابقة.

ثالث المراتب تمثلها الحكومات غير الايديولوجية التي لا قدسية في اعمالها.

رابع المراتب هي الحكومات الملتزمة بايديولوجية اختارتها على صورة من الصور.

خامس المراتب هي الحكومات التي انبثقت عن ثورة ايديولوجية لان وجودها مكرس بما فيها من ظلم وخطأ والخراب عبارة عن قدسية مطلقة في تفصيل ورثناه بسفك ودموع نعوذ بالله.

انا اعلم ان البيريسترويكا وامثالها سوف احدثت تغيرا كبيرا في درجة رعاية الفرد انسانيته واعتقد أنها خففت كثيرا من غلواء الادانات ولكن يبقى ان موجهي الاقتصاد موظفون ليست لهم خبرة حية في حاجات الناس وكيفية اشباعها بتوفير ما يشبعها.

ولا ندري بعد ذلك كيف تتم معالجة حقيقة ضخمة في الاقتصاد لا يمكن اغفالها لحظة واحدة وهي أن الاقتصاد السليم يتطلب نظاما متكاملا في كل الأصعدة بالمجتمع الرسمي والأهلي يساعد على حرية الحركة وانتقاء الموانع والعوائق ويسهل فيه الحصول على المادة الضرورية دون تدخل شاغلي المراكز الكبيرة من وزير ومدير الى ورجل مخابرات أو سيطرحزبي و بقية المصائب المرعبة التي تحفل بها الدولة الثورية. ثم لا ندري ايضا كيف يمكن خلق مناخ حر ومسئول في آن واحد من قبيل ما هو متوفر في بلدان (الطبقات) حيث الحرية مكفولة بالتمام والكمال ومسئولية المنتج تابع من شعوره بالمصلحة الذاتية دون حاجة الى مرشد وفلسفة وأناشيد المارسيليز والأممية فكيف يتم خلق مناخ مماثل في واحدة من المصالح ببلد ثوري مثل روسيا؟ كيف يستطيع مدير المصنع استعمال حرية تقديره للكميات التي يحتاجها من المواد والكهرباء والعمال والمكائن فاذا بارت تقديراته جاء الفشل كله واقعا على المجتمع لأن المدير غير مالك للمشروع وهو لهذا السبب غير حر نفسيا للاقدام على التوسع في الطلب؟ قرأت في واحدة من اعداد New Times أن مجموعة شركات غربية كبرى لها عقد مع حكومة روسيا في زمان البيريسترويكا. فاحتاجت الى (فهم) تصوغه لاستعماله فيما لا ادري فقضت سنة كاملة حتى استطاعت تخطي العقبات التي تضعها البيروقراطية في وجه المصالح وقرأت أيضاً كلاما لشخص امريكي يكاتب صحافتكم انه يتعامل منذ زمان مع الروس - فيقول انه دخل في حوار مع رئيس احدى الجمهوريات الصغيرة للقيام بعمل انتاجي تحتاجه الجمهورية وموادها متوفرة فكان التوافق في الرأي تاما ولكن الموافقة على العمل من اختصاص موسكو فاستمهله صديقه السوفيتي شهرا ليستكمل المراجعات، ويقول قد مضى شهران حتى الآن بلا ادنى جواب.

ان الحكومات اصلح للمشاريع الضخمة وفي كثير من بلاد العالم الثالث لا تستطيع غير الدولة القيام باي مشروع ذي تكاليف باهظة ومخاطر كبيرة. والواقع أن العراق نفسه قبل ثورة تموز كان مثالا حيا لما اقول فالمشاريع الكبيرة بلا استثناء كانت حكومية، وتأسس فيه (مجلس الاعمار لتنفيذ برنامج متكامل يعتمد على موارد النفط). على كل حال لا يمكن في تنشيط الاقتصاد ان يكون المجتمع وحرافقه جزرا منفصلة بعضها عن بعض فلا أمل في ازدهار جزيرة وبقية الجزر هامدة. ويتصل الاقتصاد باستقلال التشريع والمحاكم على اساس فصل السلطات كي لا يكون العبث باقدار الناس لعبة يمارسها الكذب أو الموظف في الاجهزة السرية فتلك علة تكفي بمفردها لذبح الاقتصاد. الحياة نهر يجري وشرايينه تتداخل باستمرار فيما بحث مجتمع استطاع قادته ومرشدوه استئصاف عروقه المتشابكة ومصالحه المترابطة بشرايين واوردة تنقل الغذاء الى كل جزء في جسمه بطلاقة وسلاسة ناجمة عن

محمد الأمين

تعاويذ الشعارات والتوقف بانتظار صدور الأذن بالتدفق. أعترف بأني حائر أمام كيفية تدبير ذلك في مجتمعكم ومحاكم العدالة حتى هذه اللحظة تنتظر الأمر من جهات غير قضائية لاصدار قراراتها وذلك بحسب ما قرأت من كلام رئيس المحكمة العليا السوفيتية!

أطوي بقية الصفحة ٥٥ والصفحتين ٦٥ و ٦٦ من الكتاب رغم ان لي عليها ملاحظات منطقية كثيرة، لأقف قليلا عند اول الصفحة ٦٧ اذ تنقلون عن لينين هذه العبارة:

"ان الاشتراكية هي الابداع الحي للجماهير"

هذه العبارة الجميلة من العموميات التي لا تستقر على معنى محدد وهي تختلط تمام الاختلاط مع عبارة اخرى للرئيس غورباتشوف جاءت بعد ثلاثة سطور تالية اذ قال: (ان الناس بكل تنوعهم الابداعي هم صناع التاريخ) واسارع الى القول ابتداءً ان صناع التاريخ هؤلاء ليسوا بالضرورة اصحاب التاريخ فقد مر بنا ان بناة الهرم من العمال المسخرين لم يكونوا أصحابه، والذي يحمل مشنقته او يحفر قبره بيديه امتثالا لظالم لعين ليس واحدهما حالك وسيلة موته.. وهكذا!

كلمة (الابداع) في مقولة لينين جاءت مضافة الى الجماهير عفويا بسبب اقتضاء معنى الأشتراكية لأفراد متعددين يقومون به والا فان الابداع في كل عمل هو رائع أشكل بالفرد فالفنون عامة من موسيقى ورسم ونحت، وكذلك الأدب في صياغته ولاسيما الشعر، عمل أفراد. المضمون في العمل الفني الجميل أو قطع الأدب الرائع قد يكون موحى به من شخص ثان ولكن جماليات صياغته تعود الى ابداع الفرد. فاذا اشترك شخصان او ثلاثة في نحت تمثال واحد فالراجح ان يكون عملا فاشلا بسبب تباين الأمزجة واختلاف النفسيات وتميز (الصدور - الأنفات) من هذا الى ذاك. وقد يكون العمل الفني بالاساس متوزعا على جماعة من الأشخاص فيكون الأبداع في الأصل من شخص واحد ولكن تنفيذه يكون قابلا للقسمة. فالصرح الشامخ الرائع هو من تصميم مهندس معلوم ولكن اقامة حيطانه وطيقانه وقبابه يتولاها الأسطوات والعمال. وعندئذ أيضا يظهر أثر الأسطة المتفنن المتقن لعمله بقياسه الى اسطة آخر دونه في التقن وهكذا.

الواقع ان غالبية الاعمال التي تنجزها الجماهير تشكل جماعي امور متعبة في الحقل والمرعى والمعمل والمالح. الخ وتصبح روتينية آلية لا طعم فيها ولا روعة الا ما كان من شعور القائم بها انه يؤدي واجبا وان ~~business is business~~ business is business وهو شعور يتولد في بدايات متقدمة من الحضارة التي تزكي في الفرد والجماعة الحرص على اداء الواجب قبل أن تأخذ فيهم التمتع بالحقوق ويكون هذا الشعور اقوى ما يكون حين يشعر العامل انه موفور الكرامة مكفول الرزق مضمون ضد الحوادث وان زيادة حرصه في الواجب تعود عليه بالكثير من جملة استحسان وعبارة (شكرا!). والملاحظ ان غالبية الأعمال في حياة الفرد المعتاد ذات حجم

محدود يتناسب مع المجهود الفردي وهذه الحقيقة الملحوظة هي التي جعلت المدن في البلدان الآخذة بحرية الاقتصاد تصطف على طرفي شوارعها الوف الالوف من الدكاكين والمشاغل و اماكن الراحة و ما يحتاجه المواطن من مختلف المصالح والمرافق اليومية وكلها اعمال ترفق الاشتراكية بطبيعتها . في بعض المدن الكبيرة مثل لندن ونيويورك وتوكيو و باريس وغيرها ملايين السيارات الخصوصية عدا ما جرة وملايين الدراجات البخارية وغير البخارية كلها ذات طبيعة أهلية الادارة والتشغيل والاستثمار وتعمل في منتهى النجاح وضمن تعليمات المرور والاشارات الضوئية دون حاجة مطلقا للمواعظ الفلسفية والشعارات الجماهيرية والتغني ببركات روح الفداء والتضحية من أجل المجموع ذلك أن طبيعة ترابط المصالح وتوقف سلامتها على سلامة تصرف كل واحد من المشاركين في سرجان المعيشة تخلق في الكل شعورا مركزا بالواجب يقتاده ولا يخونه ، وليس من شك في ان قلب هذه المشاغل والمرافق والأعمال من التملك الفردي الى ملكية الدولة في النظام الاشتراكي المفروض من أعلى سيؤدي بها الى الضرر والفوضى و التسيب . ان ورشة تصليح السيارات المملوكة للفرد واولاده التي توجد في المقاطعة في المدينة الواحدة وتتنافس سلميا بطبيعة المصلحة الذاتية لارضاء العميل ستنقلب الى غرغيات كسل واستهتار و (تعال بعد اسبوع) حين تصبح ملكية عامة . حين اقارن واحدا من السينمائيين في المشروع الفردي أو شركة اهلية الى سينمائي موظف في ستوديوهات اشتراكية يظهر الفارق بينهما هائلا لا يقبل المقارنة فالسينمائي الاشتراكي (موظف) تابع لمديره على حين يصبح نجوم السينما الحرة أقوى شخصية وقاما من اصحاب المقامات الرسمية الرفيعة حتى انني وجدت وزراء يتقربون من هؤلاء النجوم كي تظهر صورهم في المجلات متجاورة . منذ أكثر من ١٥ سنة رأيت ممثلة روسية في فيلم ضمن اسبوع الفيلم السوفيتي ببغداد ، في مستوى اشهر ممثلات العالم شكلا وأداء وفنا وحضورا ولكنها محاطة بأسوار عالية من عوامل كبت الشخصية في كل ما يحيطها من قصة وإخراج وحرية تصرف فكانت طائر جميل في قفص ضيق فلم استطع تحمل متابعة الفيلم .. حذر اهل الصحافة واستفرد صورة محمد حسني هيكل في العالم العربي فقد أصبح أشهر من اغلب رؤساء الدول في العالم وتحب كل الدول الكبيرة حشدا لمقالاته الاسبوعية وكتبه وتحركاته .. اذكر في سنوات ما قبل يوليه ١٩٥٢ المصرية ان عبود باشا الثري والصناعي المصري كفل حكومة مصر في بعض استقراضاتها من البنوك .. رجال ونساء في الفن على نطاق العالم برزت شخصياتهم الحرة غير المنتمية للحكومات على حين يكون المطرب الحكومي في الدول الاشتراكية احد افراد الكورس في كثير من الحالات . صحيح ان الحكومات توفر الآلات والامكانات والاستديوهات ولكن طابع الخاص يجعلها هي و وجميع الفنيين واجهزة اعلامية بأذابة شخصية الفنان ليصبح قطعة في لعبة الشطرنج الاعلامي .. الخلاصة ان الدقة في مظاهر المجتمع تكشف ان الحياة بالأصل مبنية على

اساسى (الفردية) ثم تأتى (الاجتماعية) لتكون فى اوساط مراحل التطور خادمة لجهود الأفراد. ثم يصل تقدم باتجاه ازدياد الوجوه الجماعية فى ميادينها التى تحتاج الى التعاون والتساند مع ازدياد الوجوه التى ينفرد فيها الفرد بنفسه او يعتمد فيها عمله على الابداع الفردى، فان غالبية حكام كولمبيا تعتمد فى معاشها على الاعمال والحرف المحصورة بالفرد الواحد: دكاترة، مهندسون، محامون، فنانون، رياضيون، خدم الخدمات فى كل الأصعدة، أصحاب الدكاكين والفنادق وعارضى الورد، خياطون، حلاقون، سواق السيارات.. الخ كلهم معتمدون على المهارة الشخصية والجهد الذاتى. أنا لست ضد التعاون والمشاركة ولكن لا اتحمس لطى البريق الفردى فى سبيل (جماعية) فاشلة. علبة س

اصدق اصدقاء الاتحاد السوفيتى قبل أكثر من عشرسنين ان خمسة بالمئة من الارض السوفيتية يستثمرها الافراد فتعطى غلة تساوى خمسة وعشرين بالمئة من مجمل الانتاج الزراعى السوفيتى وهذا يعنى ان الخمسة والتسعين الباقية تعطى خمسة وسبعين بالمئة، وبعملية تقسيم بسيطة: $\frac{75}{5} \div \frac{95}{95}$ نجدان الجهد الفردى ينتج ٦٢½ ضعفاً ما ينتجه الجهد الجماعى فى المزارع التعاونية. اعلم يقينا ان فشل الجماعى فى حالة الزراعة السوفيتية لا يعود كله الى طبيعة العمل الجماعى فان جانبا ضخما جدا من ذلك الفشل يعود الى كراهة الناس للمزارع التعاونية على صورتها البغيضة التى فرضت برا إبتداء على الفلاح السوفيتى منذ أيام لم تكن مقومات ~~مقاومة~~ العمل الجماعى الفلاحى قد برزت فيها للوجود أصلا الا فى أدمغة القائمين بالثورة فعارضت ادمغة القائمين قد آمنت بأن جماهير الشغيلة تريد الخلاص من الاستغلال فقد تكون آمنت أيضا بأن الفلاح يكره التملك الفردى للارض الذى كان بالأصل هو السبب فى شقائه ووجدوا أن ابسر صورة يمكن أن يطبق برا مبدأ كون الاشتراكية ابداعا جماهيريا هى صورة الانتاج الزراعى الذى لا يحتاج عمليات متقدمة فى التطور العالمى مما تحتاجه الصناعة.

يروى لنا زوار بلدان متقدمة ان صاحب الدار فى مدينة من المدن يتفق مع احدى شركات البستنة القائمة على التملك الفردى لزرع حديقة فى بيته أو لتبديلها بما هو أحسن ويختار النموذج الذى يعجبه، فيروح الى عمله. وحين يرجع الى بيته بعد الدوام الرسمى يجد حديقته قائمة بكل تفاصيلها والمتعلقات تدلت منها أغصانها وازهارها وأثمارها وانصبت الاشجار مخضرة مورقة فينانة.. والسبب فى هذا الانجاز المحير هو شيئان اساسيان كلاهما لا يتوفر فى الابداع الاشتراكى. الاول هو التقدم العلمى والتكنى الذى تحقق بفضل وجود الحافز الفردى وحرية التصرف. والثانى هو التفاوض السلمى بين شركات كثيرة تعمل فى هذا الميدان. وكفت ان اذاعة سموعة على نطاق واسع كيفية حصول الفرد فى الولايات المتحدة على سيارة بالشراء فهو يزور معرض احدى الشركات فيختار الموديل الذى يناسبه مع الاضافات التى يريدها. وتكون الشركة مسئولة عن تصليح اى خلل يظهر خلال ثلاث سنين لاحقة بلا مقابل فى السيارة

بل انها تدفع لصاحب السيارة ١٥ دولارا يستأجر به التاكسي مقابل كل يوم يستغرقه التصليح.
ويتم تقسيط ثمن السيارة حسب رغبة المشتري بتحمل شيء اضافي بسيط في الكلفة لقاء الاضافات
و زيادة عدد الأقساط. اما كيف يدفع القسط الأول؟ فهاهنا العجب! انه يدفع القسط الأول
اذا كان يملك مقداره اما اذا كان معدما فان الشركة تفرط تكفله في اصل البنود لتسليفه
مبلغ القسط.. هذه التسهيلات كانت تنقلب الى (عملية امتصاص دم الشركة من قبل مشتري
السيارة) لولا أن الشركة بكفاءتها العالية و ضبط الأمور واختزال الجهد والمصروف وحرص كل
موظف فيها على عمله، فهي تتفادى الخسارة وتحقق الربح. ان أية شركة مماثلة ستفلس في شهر
واحد اذا مارست عملها في بلدان العالم الثالث باشروط نفسها بسبب التخلف الحضاري وفقدان
شعور المسئولية والاستهانة بحقوق الآخرين وبالتسيب واللامبالاة وحب المغالبة والتحدي
على حساب مصلحة الشركة! قرأت في كتاب Inside U.S.A. لمؤلفه ~~الدن~~ "كنثر" [بات
فيرا بسبب موت ابنه بالسرطان] ان تنافس شركات خطوط السكك الحديد آل الى ان تمتد
بضعة خطوط عبر القارة في اواسط القرن الماضي وان المسافر كان ينتقل من سانت لويس
الى سان فرنسيسكو بدولار واحد، والمسافة بينهما تعادل اكثر من ثلاثين درجة من خطوط
العرض اي حوالي اربعة اضعاف طول العراق من جنوبه الى شماله. هذا هو (حد الدرج)
الذي تحاول نظريات الاشتراكية أن تمنعه.

انا نعلم خطورة الألعاب الرياضية في حياة الشعوب لهذا العصر وكم من المباريات الكبيرة
ذات المكافآت الجزلة تجري يوميا في اكناف العالم وفيما عدا رياضات محدودة العدد فالفائز
الاول والمتفوق الأول والمتميز الاول وصاحب المكافأة الأولى والشهرة الأولى
هو فرد واحد، فما هناك في الرياضات ينشغل أكثرية سكان الدنيا بحكوماتها وشعوبها لتحضير
احوال وساعات وأماكن وحين تجري فيها الالعاب ليفوز فيها أخيرا فرد واحد يحتل في العقول
والعيون ووسائل الاعلام مكانة محفوفة بالهالة السحرية وهالة التقديس مع ان الرياضة لا تخلق
لقمة خبز واحدة ومنها مالا توفر حتى متعة المشاهدة (كالبلياردو) فما الذي يجعل افكارنا
تصيبها الدوار حيث يكون الابداع في عمل مبدع لا شهرة فيه ولا يكلف الدنيا فلسا واحدا
من نصيب الفرد يعيش منه ويعتاش بثمرته الآخرون؟ لماذا نقتل ابداع البقال والنجار و
الحلاق وآلاف آخرين يخدمون البشر؟ ان الرياضي من دون ان يكون مفيدا يستغل جهد
الحكومات والجمعيات والشعوب ويستنزف جانبا غير قليل من دخولهم واوقاتهم وتعبهم ولا
يقدم لهم زرّ قميص واحد فلا يعترض الاشتراكي والشيوعي وغير الشيوعي ولا يفكر احدهم في
(الاستغلال) الكامن والظاهر في الجمناستيك والركض والسباحة والمصارعة ولكن السادة
اصحاب النظريات المكافحة للاستغلال تضيق الدنيا بوجوههم ويفقدون لذة النوم اذا
تركوا واحدا من المجتهدين يبني عملا للعطور يديره هو واولاده او مقاولة او يفتح دكانا
لبيع الصوف او غزلا لانتاجه مع العلم بان الشعوب كافة تمثل في ميدان الرياضة دور البقرة
الحلوب التي لا حظ لها من الشهرة ولا نصيب لها من الحليب الذي يستحلبونه وارغ الشعوب—

كم مهل الا من ناحية أنها مكلفة بدفع الكلفة في اقامة الملاعب والسوح والملاعب و... ولا تصيب الا المتعة التي ليست من مقومات الحياة. ولنذكر ان الرياضات الجماعية أيضا مثل كرة السلة و كرة القدم تنحصر فوائدها المالية والاعتبارية بأشخاص الفريق الذي يمارسها فهم أقل عددا من اعضاء اشتراك في شركة مساهمة ويساوون الفرد الواحد الرياضي من حيث تكليفهم الجماهير تقل المال والتعب ومن حيث الشهرة والربح، والجماهير هي من حيث ضمور الأجسام وفقدان الخطورة. الفارق الوحيد الذي يميز الالعاب الرياضية من عمل للالبان هو ان الرياضة ليس فيها تملك وانكفاف فيها استغلال فظيع على حين تكون الالبان مبنية على التملك ولكن لا استغلال فيها بل فيها خدمة ممتازة للفنان لا يمكن تقديرها قطعا عن طريق مؤسسة اشتراكية وفيها رضى لا يتوفر الا من الحر والابداع الفرديين. الواقع ان وقوع الانطباعيين الانكفاء في اسار النظريات والافتراضات يقربها من حالات الدروشة والذهول عن الذات. ان رأيي أنه حيثما كان في الانكفاء اقامة المرافق على اساس جماعي وبنجاح وتفوق كان فيها ثلاث نتائج باهرة: اولها شيوع روح التعاون. ثانيها اختفاء التميز الآني من التملك الذي لا موجب له ولا فائدة منه. ثالثها نجاة الافراد من احتمالات الخسارة الفادحة. ولكن كارثة الكوارث ان ينقلب هذا الجمال النظري في تثبيت العمل الجماعي الى فرضه بالقوة وحرمان الفرد او الجماعة اشتراكا من الابداع المحبوب بالتملك أو الحافز الفردي.

اتجاوز التعليق على رؤوس أقلام من كلمات الرئيس غورباتشوف في الصفحة ٨٧ و ٩٧ من مثل:

دفع الفرد الى المشاركة في كافة العمليات يعتبر الجانب الأهم فيما نقوم به.
لكي تصنع شيئا بشكل أفضل سيكون عليك أن تعمل بجد أكبر.
الشخص ذو المعنويات الضعيفة لن يعمل بجد أكبر... الخ.

اتجاوز الدخول في بيان الشروط اللازمة لفاعلية هذه الآراء واقف عند العبارة الآتية: (ومهمتنا الرئيسية اليوم ان نرفع من روح الفرد ونحترم عالمه الداخلي ونعطيه قوة معنوية) الخوض في هذا العباب حتى نقطعه الى البر الذي وراءه تغرق سفنا كثيرة ويعيى بحالد المثابر وأناة المصابر وهو في سعة القول المأثور منذ الاف السنين: (اعمل خيرا ولا تعمل شرا) وعلى قدره من غموض الطيب: ما هو الخير وما هو الشر فيها يختلفان بحسب اختلاف موازين الناس ومعاييرهم فالشخصان المتجاوران من دينين مختلفين يعملان اشياء شبه متناقضة بنية صافية في أن يكونا صالحين وكذلك المختلفون في الايديولوجيا السياسية يتفاوتون الى حد الدخول في المشاجرة من اجل ما يعتقدون أنه مصلحة البشر. ولكن لا اشك لحظة في أنه بالرغم من اختلاف المعايير في تقدير الحسن والسيئ فان كل طريقة من طرق الحياة

مهما تباعدت ، لها من وضوح الرؤية أو غيرها من فسح الخيار و ما يتميز به الصالح من الطالح ضمن الهيكل الأخلاقي او الاجتماعي لكل طريقة . فبافتراض ان احدى الطرائق تميل بالأصل الى التشدد والمضايقة وقطع النفس عن المغريات فسيبقى مجال للاختيار بين المغالاة و التساهل في تطبيق المبدأ ، شأنه في ذلك شأن الأخذ بالحد الأقصى او الأدنى من العقوبة المفروضة على عمل معين في مواد قانون الجزاء . ان هذه حقيقة واضحة تسوقني الى القول بثقة تامة ان البيريسترويكا تتصف بعاملين مؤكدين من عوامل الصلاح : أولهما أنها خيرٌ بمراحل من الاساليب التي طبقت قبلها في تعامل الدولة مع الشعب السوفيتي وكان تعاملا مبنيا على تجاهل رأي الناس . والعامل الثاني ان البيريسترويكا نفسها تحتمل الزيادة والسعة في رجوع السلطة الى معرفة رغبات الناس وبذلك تكون امكاناتها في رفع روح الفرد و احترام عالمه الداخلي أوفر وأفعل من جميع المراحل التي سبقتها و اظنها حققت شيئا بهذا الاتجاه تمثل في حرية الانتخاب وتوفر الحرية في التعبير عن الذات ونقد الامور وكشف سيآت الماضي وفتح النوافذ على العالم الخارجي وان يكن ذلك قد صاحبه بعض الاحباط على ساحة المعيشة وفي نشوب الخلافات العرقية العنيفة وحصول الردة من أطر معينة هنا وهناك . الا أن هذه الاشياء السلبية الصغيرة ليست ذات أثر خطير على مصير البيريسترويكا ويمكن التغلب عليها دون صعوبات كبيرة اذا تمت في عملية البناء الجديدة خطى حاسمة واساسية من شأنها ان ترفع روح الفرد رفعا حقيقيا لا يمكن الفاؤه . ٧ - احترام العالم الداخلي للفرد باطلاق المجال أمامه كي يتدفق بلا عائق او سدود او حدود . ٢ - اعطاء الفرد قوة معنوية تنبعث من الثقة المطلقة بأن السلطة لا تستطيع [وليس لا تريد] نزعها منه . وهذه هي النقاط الثلاث التي تضمنتها الفقرة المقتبسة اعلاه وسيتم الكلام فيها تاليا حينما نصل الى اقوال معينة من مثل (مزيد من الديمقراطية لاجل مزيد من الاشتراكية) حتى لا نطرق الشئ الواحد مرتين .

بعد هذا الكلام ، في بقية الصفحة ٧٩ ذكر لبعض منجزات الاشتراكية يمكن تلخيصها في بندين : ١ - العيش مكفول للجميع حتى ان ذلك جعل بعض الناس عالة على غيرهم . ٢ - البطالة غير موجودة في الاتحاد السوفيتي . ولكي يأخذ هذا الكلام مجراه الطبيعي يجب بيان ملاحظتين : احداهما ان كفالة العيش في البلدان المتقدمة اصبحت امرا مفروغا منه حتى اذا كان من غير المحكن في بلدان حرية الاقتصاد حصر جميع حالات العيش المكفول فان في وجود فارق هائل بين مستوى الدخل في الاتحاد السوفيتي ومستواه في الدول البرجوازية المتقدمة احتمالات كثيرة ليجد العاطل السوفيتي ، مثلا ، رزقا بمستوى رزق العامل المكفول في بلغاريا . ومن ناحية البطالة فانه من الممكن ان يكون صادقا من يقول ان في بلدان الاشتراكية عطالة مبطنة عن طريق توظيف اكثر من شخص واحد في عمل يقوم به واحد فقط في العادة . وفي البلدان المرغوبة يمكن ان يكون الشخص العاطل قد ترك العمل برغبته كي يعيش على هواه بعض الوقت بما وفره في ايام العمل . ثم اني قرأت لسيدة سوفيتية نشر كلامها في واحد من اعداد مجلة New Times لكي أتذكر

أنها لما اعتبرت مساوية للرجل فقد اعطوها عملا ذهب بانوثتها واستنفد طاقتها فأصيلت على التقاعد براتب أقل وهي تعالج نفسها من أثر عملها المرهق وتستغيث ان يعيدوها الى انوثتها و امومتها.. وهكذا قد تكون الظواهر خداعة هنا وهنا. وفي كل الأحوال لا يجوز نسيان الامكانات المتوفرة لمعالجة النواقص مادامت الثروة والتكنيك والصناعة موجودة. ثم ان الدنيا في هذا الجانب أو ذاك الجانب ليست قطعا من جبنة الحلد فالمهم ان تكون قواعد العمل واسس الاجتماع سليمة قوية. فاذا كان نظام المرور، مثلا، في بلدما صالحاً لا يكون لمخالفات بعض الافراد واهمال بعض المرورين أثر خطير، أما ان يجامل القانون رجل مرور اعوج او يشجع الناس على المخالفة فذلك ثالثة الأثافي كما يقول المثل. ثم ان مجرد كفالة المعيشة لا يكفي لبناء شخصية المكفول كما ان مجرد ارضاع الوليد لا يغنيه عما في قواميس التربية من اسباب النمو الصحي فليس غريبا ان يتوق العامل الروسي الى التمتع بالحصانة التي يتمتع بها العامل الفنلندي او السكوتلندي ضد الطبيعة الاستعلائية التي يتصف بها منفذ القانون او النظام او اللوائح بوصفه منفذ ارادة الجماهير وممثل الثورة البروليتارية في تعامله مع العامل فهو متقدس بالقانون في استعلائه والعامل منخفض بالقانون نفسه فقد كفاه ان يكون (أثمن رأسمال) لينزل الى مستوى الآلات وبقية ممتلكات الدولة من رأسمال نقدي او متمثل في المواد الخام وصيانة المعامل وطرق المواصلات وأعمدة الكهرباء..

اننا لم نسمع في السبعين سنة الماضية من عمر الدولة السوفيتية ان يكون العامل السوفيتي قد استطاع ان يعبر عن ذاته بأبداء شئ من عدم الرضا او الاستنكار او طلب التغيير أو رفض الواقع بل لم نسمع خلال ذلك وقبل عهد البيريسترويكا بأي تململ صادر من اديب او فنان او فيلسوف، وقصارى تقديرهم في حق المعارضة خلال المدة المذكورة كلها ان عقوبة الموت التي كانت تتهددهم في عهد ستالين تبدلت بعقوبة المنشقين في عهد مابعد ستالين حتى زمان غورباتشوف وشعاره الجديد (البيريسترويكا) واستعادة المنشقين لحقوقهم المسلوبة..

لقد بلغ ذلك التنكيل لحقوق الفرد في التقديم بشئ من النقد للسلطة السوفيتية ان الاذعان لحكمه سري من داخل الاتحاد السوفيتي الى خارجه حتى صار اديبه يخشى الاشارة الى شئ من ذلك خوفا من تأليب عامة اليسار ضد نفسه. فقد قرأت كلاما للاديب وفكر لبناني كبير ومشهور عقب زيارته لروسيا في السبعينات - كما اتذكر - جوابا على سؤال حول كيفية تأقلم الاديب السوفيتي مع حظر التعبير عن نفسه بعدم الرضا و~~بعض~~ بالنقد اذ قال: ماذنب الاديب السوفيتي في عدم النقد اذا كان لا يجد في وطنه شيئا يستوجب النقد؟ قلت يومها مع نفسي: يا للكارثة! ألم يكن طغيان عبادة ستالين لأكثر من ربع قرن بكل ما اقترفه من فظائع سببا كافيا لتحريك لسان اديب سوفيتي واحد بشئ من الاعتراض؟ على حين لم يكن الاديب اللبناني المذكور نفسه يسكت عن نقد اي عمل في وطنه اذا وجد فيه شيئا مستوجبا للنقد. والواقع ان الادباء خارج الاتحاد السوفيتي، لا سيما في بلدان العالم الثالث، وجدوا

من ادلة التحام والكمال لحقوق المواطن السوفيتي هذا السكوت المطلق من ادباء روسيا ومفكريها عن نقد شيء في بلدهم فاتخذوا ذلك بحد ذاته سببا مبرراً لنقد كل شيء في بلدانهم حتى ان السياسي والمفكر والأديب العراقي المعارض لحكومة ما قبل ثورة ١٩٥٨ كان يشدد النكير على بناء مدارس جديدة بقاعات وغرف كبيرة على أنها ثكنات للجيش الأنجليزي والأمريكي يوم يعلنون الحرب على روسيا... فيا لخيبة الخيبات في عبث الضلال بالعقول! واعتبر عامة المثقفين ربط سكك حديد الجنوب بسكك حديد الشمال عبر جسر جديد في مدينة بغداد تمهيداً لتسهيل حركات جيوش الأستعمار فيا لروعة الثقافة الفالقة للذرة !! إبناء السدود على الأنهار لخزن مياهها ومنع فيضانها كان في نظر غالبية مثقفي اليسار يهدف الى انشاء مطارات مائية تحط فيها طيارات الأستعمار.. وهكذا لم يخل اي شيء نافع أو ضار تفعله حكومات ما قبل تموز من تفسير سيء ننتزعه من فكرة الطبقية و دساتير فائض القيمة والتناقض وانقسام الدنيا الى معسكرين ونشطنا في حركة السلم التي لم تكن بشكلها الذي مورست عليه إلا أشوه أشكال الدعوة للسلم فقد كفاها أنها باركت هجوم كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية وكادت ان تؤدي الى حرب ثالثة. وكان الاصرار قائماً في جميع اليسار على ان كوريا الجنوبية هي التي هاجمت وكانت على وشك الهجوم على حسب ما تذيعه وتنشره مصادر ستالين. ومن طريف ما حدث في ذلك هو اني انتقدت كوريا الشمالية في هجومها الخالي من اي مبرر فعارضني صديق متشدد في إتجاهه الستاليني مؤكداً ان الجنوبية كانت تهاجم. فقلت اي هجوم هذا وقد أخذت الجنوب على غرة حتى أن الجيوش الشمالية مضت دون عائق فكادت تصل نهاية كعب الجزمة في خارطة كوريا [كوريا تشبه أيطاليا في شكلها] فانتفضت عروق الصديق واجتح على تصديقي لكلام العدو وتكذيبي لكلام الصديق ومثل على ذلك بحكاية مشهورة تقول ان شخصاً ذهب الى (جحا - خوجه نصرالدين) يستعير حماره في بعض حوائجه فقال له ان الحمار غير موجود في البيت فارتفع نهيق الحمار في كشف صراخ عن نفسه فقال: يا خوجه نصرالدين أليس هذا حمارك ينهق؟ فقال جحا: يا هذا أمرك عجيب أتصدق الحمار وتكذبني؟

وأضاف صديقي الغاضب وانت تصدق عدوي وتكذب أخي، فقلت، ماذنبي ياهذا اذا كان الخواجه نصرالدين كاذبا و الحمار صادقاً.. ؟

ميل السيار الى تنزيه نفسه باق على شيء غير قليل من القوة و يشكل عائقاً أو مانعاً دون وضوح الرؤية في تقويم الأشياء سواء منها ماكان أحداثاً أو انجازات أو سواقن.

وبقدر تعلق الأمر بدخائل الأشياء في الأتحاد السوفيتي فإن عامة الأعلام الرسمي السوفيتي ماضية في هذا الطريق وأجد له أثرا حاسماً في أغلب ما أقرأ من مقالات مجلة ـ (International Affairs) في اعدادها المتوفرة لدي حتى ان كتابها الروس يلزمون جانب سياسات ستالين دون ان يذكروا أسمه، في كل أمر صار موضع خلاف بين الروس وبين الغرب. ان همسة قوية واضحة من روح ماقبل البيريسترويكا بادية في تناول كتابكم وسياسيكم ومفكريكم للشئون الدولية و السياسة الخارجية فهم في كل ماقرأت منحازون الى ما فعلته روسيا في كل عهودها ـ بالمناسبة أقول اني قرأت للسير أنتوني أيدن منذ زمان بعيد كلاما في السياسة الدولية يبرر فيه مواقف السوفيت بالضرورات التي أحاطتهم و وجدت لك بالذات كلاما في البيريسترويكا عن الأمريكان يشبه كلام ايدن فيكم ولكني أقرأ لعامة الناس من خارج السلطة في بلدكم كلاما تنشره صحف روسيا اليوم [في اعدادها القليلة التي اطلعت عليها] يقولون فيه مالا ينسجم قطعاً مع كلام الرسميين عن السياسة الخارجية السوفيتية في أيامها القديمة. والذي أراه في مجمل موضوع تقوية الروح المعنوية والثقة بالذات أن أصدق معيار يمتحن فيه معنويات الشعوب والأفراد مقدار الصراحة المستعملة في نقد الذات و الأعتراف بالنقص أما أن يستطيع الأنسان نقد غيره ومدح ذاته فذلك مالا يحتاج فيه الأنسان الى من يشجعه. وتقول الفكاهة ان أمريكياً قال في ميدان مفاخرته لشخص روسي انه يستطيع ان ينال من شخص رئيس الجمهورية الأمريكية بكل حرية فقال الروسي: وماذا في ذلك فأنا أنعم أستطيع ان أقول فيه ما أشاء. والفكاهة ملفقة بلا شك ولكنها تحمل بذور الصدق لأن شيوع تعدد الأفكار و الصحف وسبل التعبير وحرية الفرد و الجماعة في اخراج مايضمير وتيسير وسائل الأعلام للكل في عامة الدول الآخذة بتعدد الأحزاب والآراء والمناهج يُسّر للناس قول

ما يريدون بلا خوف من اية جهة كانت بل انه لما كانت جوهر الديمقراطية الحقيقية القدرة على نقد السلطة ، والنقد في اقوى صوره يكون تعداد وجوه النقص و الخلل في الحياة على مختلف أصعدتها فالمشهود في حالة الدول الدمقراطية أن صحافتها و وسائل أعلامها تبرز السلبيات و أشكال القبح والفظاعة حتى ليتوهم قارئها ان هذا المجتمع على وشك الأنهيار في حين يكون الخبراء وسائل الأعلام في الدول المحكومة بالحزب الواحد والأيديولوجيا الواحدة مستدعيا لشيوع النفاق بكيل المديح للمرافق الفاشلة ووصف الفتح بأنه ملاك وتسمية الجوع بالتخمة و هكذا الى نهاية قائمة التلفيقات و التشويهات . والعلة في ذلك ليست فقط هي رغبة المسيطر في مدح الذات ، وان تكن هذه الرغبة من الأسباب القوية ، بل العلة الأقوى هي انه مادام النظام قائماً على عمود واحد فانه مما يهدد بقاءه واقفاً ان تذكر عيوبه و نقائصه أو أن يمدح شيء لا يجري في السياق العام لأسباب دواعيه وهي عملية طويلة متعبة تكلف خزينة الدولة ما لا يمكن الأحاطة به . أن الفنّ لا يجد داعيا للفخر بوناه ولا يجد المتعة في ذكر أطايب الطعام في وجباته ، و يقرفه و يبيث فيه السأم أن يدوم على مدى العمر في ذكر مفاخره وصنوف النعمة التي هو ساج فيها وكان الجيل السابق علينا كان يذكر أن الفقير أذا أكل في يوم ما وجبة دسمة بلحم وشحم فانه كان يُبقي على شفتيه أثراً من بريق الدهن و يمنع بقية الطعام في نظام الى جوار باب بيته . وكان يحدث أن يسرق فقير مثله هذه الطعام ليضعها على باب بيته تماماً كما تفعل وسائل اعلام الدول الفقيرة في تلفيق المفاخر . ان البيروقراطية خطت في نقد النواقص وبيان العيوب مسافة واسعة اذا قيست الى جميع الزمات التي سبقتها من وجود الدولة السوفيتية . وأجد رغبة حارة عند جميع من قرأت لهم من الناس العاديين الذين كتبوا في مجلاتكم الراهنة بالثأر من سنوات خفت الصوت وكتم النفس وتلفيق الواقع نيطلبون الكشف عن كل الحقائق التي حجبت عنهم أكثر من ستين سنة ويتطوعون بذكر الذي هم مطلوبون عليه من عيوب و نقائص وما يعتمل في النفوس من الميل الشديد الى اللحاق بالأمم المتحضرة حولهم من الحريات التي ما وجدوا لها ظلا في بلادهم - وحتى الآن ذكرت أشياء كثيرة

وكشفت مغيبات هائلة في طوايا الخمس والستين مئة السابقة على البريسترويكا مع انى لم أقرأ إلا اعداداً قليلة من بعض مجلاتكم لا يتجاوز بضع عشرة نسخة من جريدة ومجلة : إنّ كشف الحساب عملية صحيحة الى أقصى درجات الصحة وهو بمثابة رفع الغطاء عن مرجل ارتفع ضغط البخار بداخله مع فارق خطير وهو أن المرجل لا يحب وغايته ان ينفجر الى مزق ، أما البشر فأنه بالكتم و الحصر والخنق المستمر يعود الى مسخ بشري حتى يموت او ينفجر .. ولا امكان لتجنب بعض آثار سلبية من رفع الغطاء (الاجتماعي) كأن يحدث ما قد حدث في بعض بلدانكم من فتح دفتر الثارات القديمة بين الناس . والمسئول الأول في ذلك هو صاحب المنهج الذي تسبب في تراكم الغيظ في دخائل النفوس على مدى عشرات السنين في مضغ القهر وتحمل الحيف بالأكراه الجبري. في هذه الأحوال يقال ان تلك النتائج من طبائع الاشياء ، ولكنها في الحقيقة من طبائع النفوس فالأشياء كالكمبيوتر والحمار والسيموغراف لا تعرف الغيظ والثأر فلو كان الناس في [غوغاء وسوقيات] في (عقلانية) الآلات و القوى الطبيعية لاستقبلوا نعمة الحرية وهي غاية الحالة الصحية في المجتمع البشري بما تقتضيه من الحرص على سلامتها وصيانة دوافعها فعالجوا مشاكلهم بطريقة تحقق المصلحة وتحرس السفة الكارهين للانفتاح لعلهم ينقلبون ! لقد كتبت في مواضع من كتبي ومقالاتي وآخرها كتاب (من هموم الحياة) الصادر سنة ١٩٨٨ ان الديمقراطية لسان الحضارة الذي تعبر به عن نفسها ، وجاء في آخر الصفحة ١٥٦ منه : (الديمقراطية نبات غريب عن تراب العالم الثالث لم يرسخ له جذر الا لكي يرسخ الأشنات جذر على بعض السطوح هنا وهنا لا يورق ولا يثمر ذلك ان التراب الذي ينمو فيه جذر الديمقراطية هو فضلة النفوس ورؤية العقول و أنس الطباع وشبكة الاجتماعيات والخلفية الحضارية ، فالأوطان التي تفتقد هذه التقاوى لن تؤدي الديمقراطية ولو على سبيل الاستضافة لبعض الوقت). جاء هذا الكلام في سياق كلام عام اوسع منه حاولت فيه توضيح محنة الديمقراطية في عالمنا الثالث بتفسير بعدها التاريخي الذي هو انعدام الديمقراطية فيه منذ الأزل حتى ما قبل قرن وبعض القرن بعد الثورة الفرنسية وركزت على دور طلائع نضالاته بغيابها الكلي عن تفهم روح الديمقراطية وروح تغويبها وروح العصر في تفصيل موجود بالكتاب المذكور . ولما كان غياب الديمقراطية مقترناً بوجود سلطة

كانت تستمرئ دوام الحال بما فيه من مزايا لها عبر العصور فالمسئولية الاولى تقع عليها في الأنتقال بنفسها وبشعوبها الى ساحة القرن العشرين وعليها أن تحتمل شذوذا وجنوحا يقع اثناء ممارسة الديمقراطية التي كانت مقبورة عبر العصور. فليس يصح التسليم للسلطة بطى صفحة الديمقراطية كلما انفتق رتق في نسيج بنيتها فان ألف الف رتق ينفتق في هيكل النظام الدكتاتوري ولا يكلف الدكتاتور نفسه بتصليح حاله او بطى صفحة حكمه. والكلام هنا يتوجه بالضرورة الاولى الى البيريسترويكا في أن عليها ان تتمادى وتتمادى في مد الخيط لارادات الناس لكي لا تحجج عليها وعلى ممارستها في أنها غير ماهرة لأنها ستمهر حتما في مستقبل غير بعيد، فاذا كان رفع روح الفرد واحترام عالمه الداخلي واعطائه قوة معنوية من المهمات الرئيسية للبيريسترويكا فان من ضمن هذه المهمات الهامة عملية التحصين والتقوية والترسيخ لكيان الفرد والجماعة ضمن عملية البيريسترويكا بالتغلب على عوامل النقض والتوهين ومعالجة الانتكاسات التي قد تقع وليس بالغاء الديمقراطية وسد ابواب الانفتاح ذلك ان هذا العمل له أصحابه التاريخيون وهم البيروقراطيون وأصحاب الادمغة المتحجرة والصدور الضيقة ولم تكن بالناس حاجة الى قادة للانفتاح تكون خاتمتهم تأكيد رأي المنغلقين بالعودة الى سد المنافذ وقطع الالسن وقهر الحريات..

بعد تجاوز جملة تعقيبات على رؤوس أقلام في الصفحتين ٨٥ و ٨٩ أصل الى وسط الصفحة ٢٠ اذ جاء فيها:

من كل حسب قدرته، ولكل حسب عمله

وهو من الشعارات الجميلة المشرقة التي طبقت شهرتها الآفاق وأخذ على أنه بديهية لا تحتمل المناقشة وانه يؤجل بشارة (.. ولكل حسب حاجته) الى طور الشيوعية.

لست ادري كيف رست الأمور في الدول الأشتراكية، والاتحاد السوفيتي بوجه خاص، بصدد تطبيق هذا المبدأ فهو في حقيقته لا يعدو كونه واجهة سياسية تستقطب رضا الناس عن النظام الذي عرضها فليس في الامكان معرفة مدى قدرة الشخص حتى نقدر كم صرف منها وكم بخل بها. ولا ندري ماذا نفعل بزيادة القدرة التي يملكها الشخص على العمل الموكول إليه. ولا ندري الا في حالات نادرة ما هو مقدار العمل الذي أنجزه الشخص ولا ندري كم هو ثمن هذا المقدار الذي أنجزه.

في البلدان التي لم تتكلف رفع مثل هذا الشعار لا يوجد اشكال كبير في هذه الاسئلة فان مبدأ العرض والطلب يجيب على تساؤلات كثيرة فان ملايين الافراد يقومون بأعمالهم لحسابهم الخاص ويعرضون نتائج عملهم في السوق ويتوقف تحديد ثمنها على احتمالات ليس بينها حكم مقدس سابق من جهة واجبة الطاعة..

هارس غايات وظيفته الكبرى في برج المراقبة لترصد التجاوزات والحرائق يقضي اغلب وقته بلا عمل واضح وليس لعمله ناتج موزون او مذروع أو يمكن عرضه في السوق..

فكم هي قدرته وما مقدار عمله وما ثمن ذلك ؟ وكيف يمكن التمييز بين حارس نشيط و حارس خامل فكلاهما متربع على كرسي المراقبة وسيراقب عملها..؟ أسئلة كلها بلا أجوبة !

مدرس يدرس التلاميذ وعدد المدرسين في روسيا ، مثلا، يزيد على كذا مليون بلا شك فمن اين نأتي بالكمبيوترات لتحديد الجهد الذي يبذله كل مدرس توصلا الى معرفة ما اذا كان جهده (حسب قدرته) ام دون قدرته ام فوق قدرته؟ وما ثمن جميع قدرته للخصم منها حصة الجزء الذي تكاسل فيه ؟ وما مقياس تثمين الجهود من مدرس تام القابلية ومدرس أقل منه؟ اسئلة حقيقية في شيء افتراضي خيالي ليس أكثر من شعار جذاب !

مليون سائق تاكسي بعضهم كسلان وبعضهم نشيط وبعضهم حرامية وبعضهم أشراف..! ماذا صرف كل منهم بحسب قدرته وماذا أنجز بحسب عمله ؟ لو وضع على كل سائق راقب دائمي على مدار الاسبوع والشهر والسنة والعمر لما أمكن التوصل الى ظل من ظلال المبدأ المذكور فيما يخبزه الافندي والويل للمتطرق الذي يريد الوصول الى وجهته في موعده اعتمادا على سلامة ذمة سواق ضاعت آدميتهم في الموازين النظرية !!

عامل فحم وعامل الماس وعامل ذهب .. صائغ بلاتين وصائغ فضة وصائغ نحاس.. ناسج حرير وناسج فيش وناسج زولية.. صباغ اجنبة وصباغ أقمشة وصباغ بيوت !! كيف يمكن تطبيق المبدأ المذكور عليهم بلا تعنت ومن غير تثمين جزافي وافتراضات تخطئ و تصيب مادام مبدأ العرض والطلب قد تم قتله بقتل حرية العمل وحرية البيع والشراء و التعامل ؟ وما أجر عامل حفر فوجد الماس وما أجر زميل له حفر فلم يجد شيئا ؟ وما أجر صاحب الألماس اذا صرف بقية يومه بالكل ؟

رسام كاريكاتوري ورسام سوريالي وآخر تكعيبي، عرفنا ساعات عملهم فكيف يتم تثمينها ؟ ولم نعرف ساعات كل واحد بدقة فكيف يتم تحديد الأجور ؟ وما ثمن الكاريكاتور والسوريالية و التكعيبية ؟ وما نسبة أجر الرسامين اولئك الى أجر الكناس بفرض أنهم صرفوا قدرتهم بلا قصور ؟

سائق طيارة حربي وطيارة مروحية وطيارة شحن ؟ في الحرب ؟ في السلم ؟ في الليل ؟ في الشتاء ؟ في التدريب ؟ في العمل ؟ ما انعكاس هذه الحالات في مرآة من كل حسب... ولكل حسب..؟

عامل زراعي أنتج مئة كيلو خيار وعامل آخر انتج خمسين كيلو فشل وسعره ثلاثة اضعاف سعر الخيار ! كيف يتم تحديد أجرهما ؟ على أساس سعر الانتاج أم مقداره أم نوعيته أم ماذا؟

الخلاصة ان تطبيق هذا المبدأ لا يتم الا على الورق وفي خيال المنظرين ويمكن تجاهله بل يجب تجاهله تماما والاكتفاء بوضع ضوابط عامة لتحديد الاجور في مختلف الأعمال بحسب : ١- خطورته ٢- صعوبته ٣- خبيثه.. وما شاكل ذلك وان كان ذلك يخل بمبدأ معاملة العامل بغير الماهر. وعويص مشاكل تحديد الأجور في كثير من بلاد الدنيا بتحديد الأجر على الوظيفة ضمن حدود عليا ودنيا حسب الكفاءة وحسب قواعد للترفيع وشروط للمكافأة و استناد الى الشهادات او الخبرة العملية محفوفة بأنظمة جزاء متعارف عليها درءا للاساءة و

والكسل، وتبقى حقيقة خطيرة تحكم هذه الاعتبارات الضرورية للضبط والتنظيم وهي حقيقة ذات قرنين كبيرين: أولهما، ان فاعلية اى نظام او تدبير في إحكام الأمور من عمل وإدارة وتوجيه متوقفة على درجة حضارة البشر الذين يطبقونه فلا يمكن تنصيب وعاظ على الناس ليتصرفوا في حدود المعدلة والإنفاق والمصلحة واحترام القوانين والواجبات والحقوق. وثانيهما ان الانتعاش بجمال الشعارات والتنظيمات والتقنينات لا يوفر ربع صمون مالم يكن هناك ازدهار اقتصادي.

قد يكون مما يساعد على زيادة تنوير ما يعنيه هذا الشعار في واقع الأمر هو أن الدين يلقى الكثير من واجب على المتدين وقد لا يكون واجب منه يوفر له خبزاً او ملبساً او مسكناً فهو يصوم ويصلي ويحج بلا شعارات ولا تشجيع من أحد والسبب هو أنه يؤمن بهذه الأشياء باعتبارها أوامر من رب العالمين اما التعاليم الدنيوية فان البرهان لحسن إتباعها هو كونها موضع اقتناع عند القائمين بها على أنها ذات فائدة لهم. فالقول بأن الأشتراكية ابداع جماهيري وانها (من كل.. ولكل..) فبغرض انها تعني امورا قابلة للتحقيق، فلن تفيد في شئ مالم تؤدي الى مصلحة ملموسة. اما ان الناس منقادون لها رغم كل شئ فذلك لأنهم لا يملكون خياراً غير الانقياد.

والواقع هو ان الشعارات الفارغة يمكن تعليقها على باب كل مصنوع مجد وسينما ووضعها فوق القمم وفي بطون الوديان دون ان يكون لها اى قيمة تطويرية ولكن يكون لها في الغالب تأثير تقهقري لكونها لا تعني اى شئ قابل للاستعمال باستثناء جواز استغلالها من قبل المنتفعين في الدوائر الحاكمة.

وهناك اعتبار آخر في غاية الخطورة لم ينتبه اليه هذا الشعار وهو أن التطور التكنيكي يوفر وسائل للانتاج والعمل تزيد من قابليات الانتاج عشرات المرات وهي تدخل الحياة المتحضرة حتى انها تحل محل اليد البشرية بل ان العمل في المعامل ذات الخطورة في الاشعاع الذري يتولاه اليوم (روبوت)، ولربما استطاع شخص ماهر في التكنيك أن يدير مفاتيح معمل برمته فيقوم بجهده مقام مئات العمال غير الماهرين. ولا أستبعد ان يأتي يوم يتغير فيه المستوى العلمي الى حد يختفي فيه تماما هذا الشعار الخالي من المضمون أصلا. ولا أبالغ أيضا ان شعار المنجل والمطرقة فقد له من الدلالة العاطفية في تمجيد العمل البدائي مقدار هو اضخم بكثير مما يستدعيه عنوان (دكتاتورية البروليتاريا) التي لم تكن قط صاحبة الكلمة في اى من بلاد الاشتراكيات، وهو يرتد على مفاهيم المستويات المتقدمة في البلدان التي تسنى لها التطور العلمي والتكنيكي حين يطغى على العمل غير الماهر بأكثر مما يطغى العمل المتخصص في فرع كالطب، مثلا، ويجب بقسوة متناهية دور العالم والمهندس ذوي الخبرة والمهارة. ووجدنا في الثورة الثقافية بالصين يهزئ كل معنى فيه أي مقدار من التعقل والمنطق، ان المنجل والمطرقة شعار يليق باى طور حضاري جاء بعد العصر الحجري الى ما قبل الف سنة او أكثر فيها بمستوى الحضارة والسطح المائل في بدائيتها

وتفاخرة شأنها، وغاية مايفعلانه بعد استخفافهما بالعلم والتكنيك والصناعة والحضارة وبالعامل الماهر نفسه. انهما يمهدان لتحكم البيروقراطي الذي يستطيع من مستوى أميته ان يسيطر على مجتمع محكوم بحفاليم المنجل والمطرقة، وبضربة واحدة من هذا الشعار يقضي على كل وزن وخطورة ورأي للعامل الماهر والمهندس والرياضي في المصنع ويستقطب به ولاء جماهير العمال الأميين أمثاله. فما أشد قوة المفارقة في الغاء شعار القلم والقرطاس والمركبة الفضائية ليرتفع مكانه شعار هوين مميزات عصور الأمية. ولا يتوهمن احد من عشاق الشعارات الجرافية ان كرامة الطبقة العاملة مرتبطة بهذا الشئ الخيالي المغرق في الرجعية فانه مهما يكن من مزايا للعمال وغير العمال في ظله فلا نسبة بين الذي يتمتع به عامل سويدي او دانماركي بفياب المطرقة والمنجل من شعاراته وبين حالة العامل البلغاري والروماني من نواحي متع الحياة المادية واعتبارات الكرامة واحترام الرأي. ثم ان للواقعية الشعارات الجرافية المقدسة ذات أثر خطير في تردي نوعية المصنوعات وقلة كميتها. ان قراءة عابرة لمقالة سايمون تشيليتش Simon Chilewich بعنوان (Perestroica and Business ~~Business~~) منشورة في عدد يناير ١٩٨٩ لمجلة International Affairs الصادرة في موسكو تكشف مدى جمود هذه الشعارات في ظل البيروقراطية وانتفاء الشعور الشخصي بالخسارة. يقول في بعض ماقول انه تم توصله الى اتفاقية مع وزير الصناعات الخفيفة الروسية حول تسهيلات ~~صنع~~ مشروع لتصنيع الجلود وان سنة كاملة مضت ولم نشرع في اي خطوة والعلة ليست في قلة حماس الوزير ولكن للطبيعة السلحفاتية في البيروقراطية وتعذر الوصول الى قرار حاسم..

ان التجربة المرة التي تمر بها الشعوب في تحمل المصاعب والتخلف للاكتشاف عاف الشعارات الجرافية من مذاهب نظر وعبثية تغني العالم كله عن اعادة التجربة مرتين وعن تجربة مماثلة محكومة بالرغبة الفوقية.. وإني لأتساءل ماذا كان البيروقراطي يرضى ان يتلقاه مشروع خاص به كما تتلقاه المشاريع العامة بسبب تعنته هو وتمسكه بالشكليات والمواصفات التعجيزية وهل يرضى أن تضيع ثروته الموظفة في مشروع يظل يأكل جزءاً فجزءاً من تلك الثروة خلال المدة المنقضية على حصول الموافقات المطلوبة في تشغيله.

اذكر أن صديقا كان يستغل رأس ماله في التزام المشاريع الحكومية حاور بعض ~~المسؤولين~~ المسؤولين الحزبيين في بلدي منذ أكثر من عشر سنين فقال لهم في إخلاص أكيد وصدق كامل: لكم الكفاية يا سادة أن تنشغلوا بالمشاريع الكبيرة والمواد الباهظة فليكن لكم استيراد شيلمان الحديد ولكن دعوا لي أنا استيراد المسمار والكلبس والدبوس فان هذه الانواع الصغيرة من الحاجات لا تخطر على بالكم ويحتاجها الناس في اعمالهم اليومية. وهو كلام يصدق في كل المجتمعات فالحكومات لاتستطيع الانسياب الى جداول القطن والاندسان في علب البلكويت والانزلاق في صنابير الماء ومئات مئات المصالح الدقيقة والخفية التي يحل الفرد في تعامله اليومي مع الحياة. والحكومات اذ لا تستطيع ذلك لا يصح لها قطعا ان تدخل بين الناس وبين رغبتها المشروعة في أن تجد ملحا أبيض ومعجون طماطة أحمر وإبراً

باحجام مختلفة وكفايتها من الحبر وأشرطة الحذاء و.. في اي وقت تحتاجها ولا يفيدها الف عذر وحجة في اختفائها بذريعة منع الاستغلال وتعميم الاشتراكية. ويوم يتبلد إحساس الناس حتى يستوي عندها توفر الحوائج وانعدامها في السوق باجترار الاحباط على مدى الايام لا تعود تهتم ما إذا كانت حرمانها آتيا من عجز الحكومة واشتراكيتها الساذجة المسطحة ام من فعل الشيطان والارواح الشريرة وبقية الشعارات. كل الشعارات. خطأة في الهواء تنهم بقسطرها الذي لا تستحقه من التقديس والكلام يطول في هذا الباب فنغادره الى متابعة بعض ما ورد في وسط الصفحة ٣٢ اذ يقول:

ان الاشتراكية والديمقراطية لا تنفصلان. وفقا لما يقول لينين الديمقراطية بمعناها الحقيقي شيء معلوم لا يحتمل التأويل وهي، بعد وجود سند حضاري لها في واقع المجتمع أو إيمان مطلق بها في الاقل، عبارة عن حكم ينبثق من تعددية المناهج، أي الاحزاب وحظر تفرد أية جهة حزبية او أيديولوجية بالحكم عن طريق قهر الآخرين. ومن خلال النظر الى الموضوع بهذا المفهوم يكون كلام لينين يقصر حق حرية الاختيار على أصحاب الاقتناع بالاشتراكية فقط وهو، اي حق حرية الاختيار، يضيق في التطبيق بحسب منطوق كلام لينين نفسه ليدور في إطار اشتراكية أقامها هو فلا تستطيع حتى الطبقة العاملة نفسها ان تخرج من هذا الاطار الذي رسمه حولها لينين وهو اطار دكتاتورية الطبقة العاملة. وواضح الدكتاتورية لا تمارس من قبل ملايين الناس، ولا فئاتهم أيضا، فالضرورة تقضي بايجاد هيئة تنقل حق ممارسة السلطة من الشغيلة الى الذين أنابوا أنفسهم عنها في ادارة المحالج، وبهذا يتأكد الى الأبد في واقع الممارسة ما أكدته النظرية الأيديولوجيا من سقوط حق الشغيلة في ألا تكون دكتاتورية.

هذه حقيقة ملموسة ومحسوسة ومشهودة ومحققة الوجود ولها سوابقها في التطبيق أبرزها ما هو حاصل في العقيدة الدينية في عدم وجود خيار للمنتمي الى دين معين أن يخرج منه الى دين آخر أو الى غير دين مع ملاحظة ان الدين له في ذاته مبرر مذهبي انه في نظر نفسه ارادة رب العالمين لا ارادة فرد واحد أو مجموعة أفراد.

ولكنا نعلم الى ماذا آل هذا المبدأ على عهد ستالين وما بعده فقد عز في التاريخ أن يكون قد حدث (سقوط الحق) من اصحاب الحق كما سقط حق الاختيار من شغيلة الدولة السوفيتية حتى ان تمردات حدثت على سلطة الاكليريك من قبل اصحاب العقيدة الدينية

هنا وهنا في الزمان والمكان ولم يحدث مثلها قطعاً في زمان ستالين وما بعده لا من الشيلة ولا من غيرها. واليوم تأتي البيريسترويكا بالبشارة من أعلى فانتعش بها الآمال وتنفست الناس الصعداء من خلال توفر الإمكان لتقول ما ظل أصدرها بالألم منذ عشرات السنين. ومن الواضح انه على قدر طول حرمان الناس من حرية الكلام ستطول فرحتهم بالكلام والقدرة على الثأر من ظلام الماضي بالهجوم عليه وبلك ؛

يملأني التوجس ، أنا الذي لا أملك في الأمر شيئاً الا ادامة النظر في حيثياته القديمة والراهنة واحتمالات المستقبل المتولد منه، يملأني التوجس من حقبة انقضاء (شهر العسل) واوان الفرحة هنا بانتهاء الناس من لذة التنفيس عن الذات وفراغ حقبة العتاب والنقد والتجريم وعندئذ سيفتحون العين على حقيقة لا تسر وهي ذات ثلاث اذرع تشد المجتمع في احكام ، اولها استمرار دكتاتورية البروليتارية وما تنطوي عليه من مآل واضح في رجوع السلطة الدكتاتورية الى طبقة حاكمة تدير الضرورة وتوجد على سبيل الحتم امور الناس فلن يكون بالامكان تمكين الشعب كله من ممارسة الحكم. ثانيها ان الحزب المتفرد الذي لا منافس له سيقوم مستقبلاً بالدور الكارثي الذي قام به في الماضي فما هو مجموعة ملائكة منزهة من الرغبة في حب الظهور واثبات الذات بكل الأطرين. ثالثها ان الايديولوجية المتفردة التي تخطر كل الايديولوجيات الأخرى من أكرهها تضيقاً الى اكرهها انفتاحاً ستدمر بالناس في حلقاتها المفرغة وبين شعاراتها التاريخية والمستجدة وتنتهي أخيراً الى معاداة الناس بالماء الذي تريد علاجه. والشعار المستجد الذي وجد ذكره لن يكون اكثر من ابتداع صيغة أو صيغ جديدة لمضمون قديم فالأشتراكية اللينينية الماركسية ذات معنى واضح لا خفاء فيه وجربت على مدى اكثر من خمس وستين سنة -- أنا لا املك الحق في الدعوة الى هجر عقائدكم ولكني أملك الحق في بيان التداعيات البديهية التي تنبعث من بنيان مستند على عمود واحد فالقول بأن الأشتراكية والديمقراطية لا تنفصلان يعني بداهة ان الديمقراطية والديمقراطية تنفصلان الا اذا كان المقصود بالأشتراكية حلولاً يطلبها التطور الديمقراطي المبني على تعدد المناهج وهذا ما لا تعنيه اللينينية الماركسية بحال من الأحوال.

ان نظاما مستندا الى دكتاتورية بروليتاريا ذات منهج اشتراكي محدد مفروض منه بحزب واحد لن يقول به الوقت ليأتي بمريخنيف جديد يعلن انتهاء العمل بتأجير الأرض لمدة طويلة وانه آن الأوان لمنع وسائل الأعلام من نقد الاشياء ، الا اذا استمر التحايل على النصوص الخالدة والصيغ المحنطة بالالتفاف حولها أو إفراغها من محتواها وحشوها مجددا بمضمون مغاير ويكون الشفيع في كل مرة التظاهر بأن لينين قصد هذا وان ماركس صرح بمثله وان لب الاشتراكية اقتضى ماحدث وهكذا .. وهذا ما لايفعله خليفة بريجنيف قطعا ..

ليس للاحد ان يمنع الشعب من ان يختار ما يوافق رأيه فله ان يتمسك بدكتاتورية البروليتاريا أو بحكم الشخص الواحد أو حتى بالرجوع الى القرعة فيما يجب ان يتقرر ، فهو صاحب الحق فيما يملك فاذا كبل نفسه بارادته و تنازل عن رأيه بارادته و أقام صنما يعبده بارادته وهدم ضمانات كرامته بأرادته فله مايريد مادام لايعتدي على ارادة شعب آخر وليس لأحد بعد ذلك ان يتحسر ويعض البنان ويتكلف الاسى على تفريط الناس في حقوقهم بل ان خلاصهم من القيود التي فرضوها على أنفسهم يجب ان يترك الى الاجيال التي تأتي بعدهم . ولكن قبل أن يتطوع الشعب من ذات نفسه وبرضاه التام ان يقيم حوله ثلاثة اسوار سميكة من : ١- دكتاتورية البروليتاريا ، ٢- اشتراكية محددة الاوصاف لايجوز تخطيها ٣- حكم الحزب الواحد ، ليس من الانصاف التذرع بالتبريرات والتخريجات لفرضها عليه : ليس للوكيل ان يصادر حرية الأصيل في التصرف بما يملك الا اذا كان المالك قاصرا تدار أملاكه من قبل ولي أو وصي أو قيم . على ان الفرد القاصر سيبلغ الرشد في يوم من الأيام المحددة في القانون ولكن الشعب الذي يعتبر قاصراً سيظل قاصرا حتى يتنازل وكيله عن وكالته أو الوصي عن وصايته بعد عمر طويل وهذا من قبيل الأحلام اللذيذة ..

أنتقل الى العنوان التالي في صدر الصفحة ٢٧ :

مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديمقراطية

رؤوس أقلام كثيرة تتبع هذا العنوان تطلب التعليق والمناقشة مثل :

١- ترتبط البيريسترويكا ارتباطا وثيقا بالاشتراكية كنظام .

٢- هل تعني البيريسترويكا اننا نتخلى عن الاشتراكية .. البعض يراوده الأمل وآخرون يراودهم الشك .

٣- هناك اناس في الغرب ان يقولوا لنا ان الاشتراكية في ازمة حادة .. وأن امامنا مخرجا واحدا هو ان نتبنى اساليب رأسمالية للادارة الاقتصادية وان ننحرف ناحية الرأسمالية .

٤- يقولون لنا ان البيريسترويكا لن تؤدي الى نتيجة داخل اطار نظامنا وعلينا ان نغير هذا النظام .. وأن ثورة ١٩١٧ كانت خطأ تحرك بلادنا .. الخ

بعد هذه النماذج تتفضلون يا سيادة الرئيس عموما تشوف بتوضيح لا لبس فيه هو أنكم تقومون بكل الاصلاحات وفقا للخيار الاشتراكي وتبحثون داخل الاشتراكية عن اجابات جميع الاسئلة .. وان الذين يأملون أن نبتعد عن الطريق الاشتراكي سيصابون بخيبة أمل ... وان البيريسترويكا ترتكز على مبدأ مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديمقراطية ..

ما تتفضلون به من تفاوت أو تنوع آراء الناس وتوقعاتهم حول اعادة البناء شيء مفهوم

وواقع ويمكن ان نضيف الى مجموع تلك الآراء رأيا آخر صادرا من اشد الناس عداوة للانفتاح واعادة البناء وهؤلاء الاخيرون يمثلون الطرفين الأقصيين من اليمين واليسار وبعبارة أدق غلاة المتشددين في الاتحاد السوفيتي مع غلاة اليساريين خارج الاتحاد السوفيتي و غلاة اليمين في العالم الرأسمالي وهؤلاء يجمعهم البلوى في موقفهم من الانفتاح والدمقراطية. فالبيروقراطية الروسية تتربى وتزداد اذا مضت حركة الانفتاح الى غايتها. واليسار المتطرف خارج روسيا مرتبط روحا ووجودا ومصيرا بالستالينية واشد انواع الحكم دكتاتورية وعنفا لأنهم لا يتنفسون هواء نقيا كالاحياء التي لها رئة وانما هم يتنفسون بفلاصم. اما المغرقون في العداء للاتحاد السوفيتي من عالم الغرب فهم لا يتمنون شيئا كما يتمنون انبعاث ستالين جديد يدب القضاء على الشعوب السوفياتية فذلك في نظرهم يؤدي الى نتيجتين تشتهيهما نفوسهم: اولاهما ان السوفيات سيظل في تأخره علما وتكنيكا وانتاجا في الزراعة والصناعة فيختفي بذلك خطر المنافسة الروسية للعالم الغربي في ميدان الاقتصاد. ثانيهما ان عودة الستالينية تتيح لهم الجهر بآرائهم في وجوب التصدي لروسيا بالسلاح النووي ومنع التكنولوجيا عنها ومحاربة كل شيء فيه ازدهارها وفي ذلك اتساع الفرص أمامهم لترويج افكارهم و فرض نزواتهم وحماية مصالحهم التي تتعرض للتهديد بانفتاح روسيا وزوال الموانع في التعايش السلمي الذي لا تعقيد فيه بين الشرق والغرب.

سيادة الرئيس غورباتشوف! يبدو ان تأريخ سبعين سنة الا قليلا، ما الأجواء المشحونة بالشك والتوجس وتوقع الغدر بين الشرق والغرب زرع في اعماق النفوس بذورا للريبة وسوء الظن يصعب قلعها. ونظرة بسيطة الى حقائق الأحوال في المعسكرين تكشف حقيقة خطيرة لا يمكن اغفالها وهي أن ما يميز شرق الشرق هو انه بعد انبعاثه يصبح شاغلا للدولة السوفيتية ونظرها وتقديرها لأن الحكومة فيه تمثل نفسها وتمثل مجموع الشعب في وقت واحد فلا يوجد تعدد في الرأي حتى يكون هناك اتجاه رسمي متشكك واتجاه شعبي او اتجاه معارض أقل شكا او غير متشكك، على حين لا يوجد في الغرب هذا الاتحاد والحلول بين الحكومات والشعوب ففيها ثلاثة مصادر للرأي السياسي في أقل تقدير وهي: الحكومة و احزاب المعارضة [بما لها جميعا من وسائل الاعلام] ثم جماهير الشعب التي لا تنخرط في الاحزاب. و لهذه الفئات الثلاث (حكومة، معارضة، شعب) وسائل متيسرة ومتعددة للتعبير عن الرأي بلا تزييف، ولا يمكن اعتبار مجموع (الناس، حكومة ومعارضة وشعبا، طينة سياسية واحدة بدعوى أنها جميعا تؤمن بالحوافز الفردية والتملك الفردي ولو جاز ذلك لكان ادعى الى اعتبارها طينة واحدة أنها جميعا تؤمن بالديمقراطية وحرية الرأي الى أقصى حد متصور، ومن هذه الزاوية يمكن للشرق أن يزيد من توجسه من الغرب بسبب ايمان الغرب بالدمقراطية وليس بسبب ايمانه بالحافز الفردي لان الخطر الذي يتهدد الاشتراكية الماركسية هو حرية الرأي وليس الحوافز فانه يمكن حتى في الاشتراكية خلق حوافز ضمن حدودها بل خارج حدودها أيضا، بالاضافة الى ان الاحزاب الشيوعية في الغرب

لا تشكل جزءا من سيمفونية (وحدة الحوافز) مع البرجوازية ولكنها أصبحت تشكل جزءا من سيمفونية (وحدة الديمقراطية) مع مجموع جماهير الغرب.

ليس خافيا ان تشدد لينين في نظرته (لمبدأ الاستقلال) باعتباره شرا محضا يجب التخلص منه، قد غالى به لترصد مسايله ومتابعه في بنية المجتمع من قمة الرأسمال الضخم حتى أتفه اشكال استغلال فرد بجهد فرد آخر لقاء أجرة، فالبرجوازية الصغيرة وكل الشرائح التي يقوم نشاطها على التأجير والاستئجار وكل العقائد التي تقف في اشتراكيتها دون مرحلة دكتاتورية البروليتاريا مجرمة في كتابات لينين، وفيما عدا الجماعة البلاشفة الذين تابعوه في ثورته الطبقية الخالصة خان جميع اجنحة ثورة ١٩١٧ التي ازاحت القيصرية وجاءت الى الحكم، كلها خونة ومرتدون واعداء الطبقة العاملة. ونعلم ان كتابات لينين حظيت بمقام الكتب السماوية في نظر تلامذته ومن جاءوا بعده في الحكم حتى ان ستالين نفسه استغل آراء لينين الحدية في تصفية خصومه وان يكن ذلك قد تم بنية شريرة وشيطنة نادرة وتحريف لمقاصد لينين. وأوضح رأيي فأقول انه بمثل ما يكون الايمان بوحدانية الله يطلب من الموحد تجريم التعددية كذلك يكون الايمان بالاقانيم التي تدعو الى حرية جميع الطبقات والى التملك واستثمار عمل الآخرين شيئا بغيضا ومحرما في عقيدة تدعو الى اختزال الطبقات عن طريق ازالة التملك وتحريم بيع العمل الى غير الدولة. ومن هنا يكون مجرد قيام المجتمعات الغربية على هذه المحرمات مبررا كافيا للاشتراكية الماركسية كي تدين وجودها بل انها لا تملك الا الحض في السعي لهدمها فاذا اضطرت الى قبول وجود تلك المجتمعات والتعايش معها بسبب الاضطرار والعجز فهو من قبيل قبول المؤمن بوحدانية الله لبقاء الوثنيين بسبب قصر اليد عن ازالتهم. غير أن المؤمن يظل يدعو الى ازالة الوثنية كما تظل الاشتراكية الماركسية ماضية في تحريض طبقات البروليتاريا على البرجوازية. أما موقف البلدان البرجوازية فهو خليط من آراء مختلفة من بينها عقائد شيوعية نشطة كسبت مساحات فسيحة من خارطة المجتمع الغربي وفيه اراء اشتراكية قوية تقصر المسافة بينها وبين الماركسية، بل اننا نجد لينين نفسه اتساق مع رأيه في فاعلية البروليتاريا الغربية وقدرتها على احداث التغيير، ورغم أنها لم تستطع التغيير المطلوب فقد قامت حسابات روسيا السوفيتية على أن اولئك اصدقاء للسوفيت. لذلك لا أملك إلا أن أعتقد ان ارتياب السوفيت من العالم الخارجي مبني على اسس في صميم عقيدتهم السياسية والأيديولوجية. ورأينا في تجربتنا الشخصية من عنف تراجمات اليسار المتطرف في بلدنا على اجنحة الحركة الوطنية صورة مصغرة ومصدقة لعنفوان الثورة الطبقية ببلدكم ضد العقائد التي تخالفها. وتأكد هذا أكثر وأكثر بالتصفيات الداخلية التي نالت صفوف الرواد للحركة البلشفية في عهد ستالين وما بعده مع ما رافقها من تشديد القبضة على دول اوروبا الشرقية بلغ حد الاحتلال العسكري بكل قبحه وعاره حتى يوم برز فيه حملة شعار البيريسترويكا والغلاسنوست لنظرة جديدة لعلاقة الدولة السوفيتية بالاصدقاء والأجانب ومن هم وراء الخط الفاصل

بين الصداقة والخصومة .

انى اعتقد ياسيادة الرئيس غورباتشوف ان غالبية الناس خارج بلدكم يحبون ويتمنون ويساعدون على قدر الطاقة سياسة البيريسترويكا و ان غالب ما يقدمون من وجهات النظر التى تطلب تبديلا وجذرية فى الادارة الاقتصادية والنظرة الى العلائق الاقتصادية فى بلدكم فأنما يقدمونه من زاوية بيان الرأى الذى يعتقدون بصحته ومنهم من يطمع فى مكسب شخصى له اذا وسعت روسيا من نطاق حرية الأفراد فى الاتصال بالدنيا والدخول فى معاملات تجارية هو الأفراد والشركات فالاتفاق مع اصحاب المصلحة الخاصة أسهل بكثير من الاتفاق مع الحكومات بصورة عامة ومع حكومة اشتراكية ماركسية بصورة خاصة .

وأنا أجد رغبة حارة ومؤكدة عند سواد الناس فى بلدكم من خلال ما أقرأ من آرائهم ونزوعاتهم ، اجد رغبتهم فى التمتع بحريات المجتمعات الغربية وفى الاستفادة من المتاجرة معها واستعارة نماذجها الناجحة فى طرق الانتاج والتوزيع واستعمال التكنولوجيا ونبذ الطرق الأستغلالية فى الادارة المطبقة عندكم والقضاء على الروتين المميت والبيروقراطية الخانقة .

يمكن أن اضع موضوع الأسلوب الأشتراكى فى الأنتاج على جانب وأناقش فكرة (مزيد من الديمقراطية) فى اقترانها (بمزيد من الاشتراكية) فالمزيد من الاشتراكية يعنى بالبداهة الرجوع عن الخطوات التى تمت فى تعديل تطبيقاتكم القديمة من مثل تأجير الأرض لمدد طويلة والسماح للأفراد بممارسة اعمال خاصة ، على حين ان الأمل فى نجاح الأعمال الصغيرة والمهن المعتمدة على جهد الفرد الواحد إلا اذا أبعدت عن نطاق الأشتراكية بشكل جذرى وهى لا تتناقض بطبيعتها مع تعدد الرأى والأرادة وبعضها لا ينتجها الا فرد واحد أو افراد اسرة واحدة فيكون اخضاعها للاشتراكية أقرب إلى اعدامها فهل تستحق الايديولوجيات ان تموت المصالح بسببها ؟ وهل جاءت الايديولوجيات الا لخدمة المصالح ؟ فاذا اخفقت فى تحقيق المصلحة فهل هى من ضمن الرهانات السماء لتخرج عن نطاق الربح والخسارة ؟

ترى ماذا يحدث لو تقرر عندكم اجراء استفتاء عام على رغبة الناس فى تعيين صفة الأعمال التى تدخل فى الاشتراكية والتى تدخل فى الجهد الفردى ؟ ام ان الصيغ الاشتراكية فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والافكار والمعتقدات آيات من كتاب سماوى جديد ؟ هذا السؤال وغيره من الأسئلة ومن وجهات النظر اساسها الحرص على سلامة الحركة التصحيحية ورسوها على بر الأمان فان ميل غالبية الناس فى دنياكم ودنيا غيركم استعمال الخيار الشخصى فى تعيين نمط المعيشة وامتلاك الاشياء والتصرف بها والطريقة التى تحقق بها ذاتها أظهر من الظاهر وأقرب الى بداهة الاشياء ولا أظن ان مقولة (مزيد من الديمقراطية) تعنى إلا تمكين الناس من رسم خارطة حياتها بارادتها لا بارادة الحزب أو الحكومة أو أية

حرية تنتحل صفة تمثيل ارادة الناس. اما ربط الديمقراطية بالاشتراكية عن سبيل الرجوع الى ثورة حدثت من سبعين سنة على اعتبار أنها صاحبة الفضل في تدبير واقع يمارس فيه الشغيلة وغير الشغيلة حياة لا بأس بها فذلك مردود بجملة اشياء: منها ان الثورة تحدث بذريعة تحرير الناس من قيود موجودة وليس من أجل تبديل قيد قديم بقيد جديد ولو كان من ذهب. ومنها أن البركة ليست مقصورة على الثورة او على الاشتراكية فان أحدا في منتهى الاذعان والضحان والرفاهية والحرية لم تسفك قطرة دم واحدة ولم تفرض على نفسها شعارا مقدسا واحدا غير حرية الارادة. ومنها ان الاشتراكية التي انبثقت من الثورة عندكم كلفت ثمنا باهظا من الدم والدموع والكرامة وضياع الآمال على مدى سنوات مروعة بمآسيها ولوازمها: ومنها ان آثارا سلبية كثيرة تعتور حياة الانسان السوفيتي نبعت ابتداء من التطبيقات الاشتراكية وما زالت حتى يومنا هذا ذات وجود محسوس يتشكى منه الناس. فانه سواء ما اذا كان التقدم حصل بثورة ام بوسيلة أخرى يبقى الناس أحرارا في اختيار صورة الحياة التي يرغبون فيها بصرف النظر عن توافقها أو تخالفها مع وسيلة التقدم الأولى. ثم انه لاشك في استحالة دوام الحال في أي بلد الى نهاية الزمان يستوي في ذلك روسيا وروديسيا وجزر القمر، وخير البر عاجله، كما يقول المثل، وقد بدأتم بالبيريسترويكا فلا مصلحة مطلقا في رسم حدود مقدسة حولها منذ البداية لا يمكن تخطيها. ولا توجد ضرورة للاعلان عن نبذ الاشتراكية ولكن لا مهرب من الاقرار بمبدأ تطويرها حسب اقتضاء الحال واول الضرورات في قائمة التطوير هي الاعتراف بحق التملك والحافز الفردي في صدر الاعمال التي بطبيعتها عمل أفراد. واسمح لنفسي (زيادة) أقول ان ربط الديمقراطية بالاشتراكية وتعليق زيادة احداهما على الاخرى حلم جميل في صورته الظاهرة وبنبيل من حيث النية التي وراءه ولكنه حلم مستحيل التطبيق والتحقيق لان ربط الحرية بأي شئ ليس من سياق الحرية نفسها صوتقييد وحرف لها الى غير وجهتها. بل إني اتحفظ في ذلك حتى هذا الذي قلته من ربط الحرية بالحرية رغم أنه يعني اطلاق المجال أمامها بما لا مزيد عليه لان حكم الواقع وذواهي المصلحة الحقيقية قد يكون مستلزما لصب مفهوم الحرية في صيغة مقيدة بشروط تمنع لحوق الحيف بالناس الذين لهم قدرة كمودة في التنافس وهذه حقيقة تتجاوز المفهوم الشائع من القولة المشهورة ان حرية الشخص تنتهي عند حرية شخص آخر فهذا من باب البديهية ومن مضامين الحرية نفسها وبغيره تختفي الحرية في أيام، ولكن المقصود مما قلته من الصيغة المقيدة بشروط هو تحديد الحرية في مجالات العمل والانتاج والتصرف بالدخل وليس في مجال الفكرة المجردة للحرية، والحياة المعاصرة في البلدان الآخذة بحرية الاقتصاد غنية بالأمثلة التي تراكمت على مر الزمان حتى وجدنا ممنوعات كثيرة في الاستيراد والتصدير والتصنيع والتملك أيضا ووجدنا قيودا على التصرف الفردي في مجالات حياته المتنوعة اقتضتها الاحوال المستجدة. فاذا كانت الاحوال المتغيرة تقتضي شروطا على الحرية تملكها فعلا في سياق الاشتراكية التي لا اقدر غيرها فان هذه الأحوال المستجدة التي فرضت البيريسترويكا

في الاتحاد السوفيتي ستطلب حتما رفع قيود مصبوبة سلفاً في صياغة الاشتراكية المفروضة من أعلى لأن التطور الحضاري قد وصل حداً طلب فيه من الحرية نفسها ان تقيد نفسها فكيف يرضى ان تقام الموانع بوجهه ابتداء على صورة لا تقبل الزحزحة في يوم من الأيام ؟ والواقع هو أن ضوابط الحرية في مذهب الاقتصاد الحر هي الصورة من صور التنظيم والأداة اقتضتها طبيعة الحياة المتغيرة اما قيود الاشتراكية الماركسية المفروضة على حرية الناس من خارج مستلزمات الحرية نفسها ومنذ ما قبل وضعها - اي القيود - في التطبيق فهي قيود مفتعلة تأباها طبيعة الحياة وطبيعة الاقتصاد بل طبيعة الاشياء نفسه .

اما التصور بأن الزيادة في الاشتراكية تعني او تطلب الزيادة في الحرية فهو تصور يجب أن يخضع ابتداء في حدود المشاريع الكبيرة التي تحتمل معنى المشاركة ولا يجوز قطعا تسريبه الى دكان صباغ الأحذية وبائع القهوة على ناصية الشارع . ان الحرص على حقوق العامل غير الماهر الذي يضيع في المنافسة لا ينبغي ان يقضي على طموح الفرد او الجماعة الذي لهم فضل خبرة وفضل حماس وفضل مهارة في انتاج السلعة أو تقديم الخدمة لان ذلك بمثابة تشويه أبهام الفنان العبقري حتى يستوي مع اوساط الفنانين : الحضارة الحقيقية تستطيع ان تجد الحل المناسب لكل شخص وهي مسئولة بالاساس عن ايجاد المعيشة عن طريق الفن الجماعي حتى للكسيح والشيخ والعاطل فما بالها تهزل فتسترخص قصورها بتضييق المجال امام الأطمح الطامح ؟ بدعوى منع الاستغلال ..؟

يحضرني مثال لا اعلك دفعه ساقه ذكر الاستغلال : فان افرادا كثيرين جلهم سيدات، يتقاضون اجورا عن القيام بالعمل الداخلي للبيوت من كنس وغسل وتنظيف يكسبون منها مبالغ اكثر من أية اجرة يكسبها العامل في الاشتراكية وغير الاشتراكية وهم بعد قضاء واجبهم يساوون أي فرد آخر من ناحية الاعتزاز بالكرامة فهم في قمام الحساب وباستعمال المبادئ النظرية الباردة يكونون مستغلين - مأجورين - من قبل اصحاب البيوت ويكونون من جهة أخرى قد استغلوا أصحاب البيوت بزيادة الأجر الذي يتوفونها منهم ، ولكن منطق الحياة يقول انه لا وجود للاستغلال من اي نوع فهو تراضٍ بين الجهتين ولو أراد اولئك القائمون بالعمل اجوراً اعلى لنالوها بلا امتعاض . لقد رأيت بعيني هذا يوم ١٤/٢/١٩٧٩ فتاة تكنس ممرات جامعة مدينة هايدلبرغ بالمانيا الغربية : لقد كانت بكل تأكيد اجمل فتاة وقع عليها نظري في الاماكن التي زرتها بالمانيا وباريس ولندن في تلك الرحلة وكانت ملابسها ، بكل تأكيد أيضا ، لا تقل نظافة عن ملابسي وتفوقها انا قة ، وكان باديا عليها شعور الراحة والرضا عن الذات باستعمال الجهاز النظيف الجذل الذي تسوقه بيسر وبلا تعب في امتصاص التراب والتقاط فتات الورق والشوائب وكانت تعمل لحسابها الخاص وليس للقطاع الاشتراكي او الجماعي واقول بكل صراحة انه لو تم قلب عملها الى شغل اشتراكي فان أجرها يقل واعتزازها ينكمش وملابسها تخشوشن وزهور حسنها تذبل والجهاز في يدها يتعطب وأكداس الزبالة تتراكم في

المرات ، وهذه حقيقة نستشفها من تجارب هذه الدنيا.

في رأيي ، ان مزيدا من الاشتراكية في اي نظام مستند إلى (الدكتاتورية) مهما يكن نوعها و اسمها هو مزيد من الدكتاتورية لأن التوسع الدكتاتوري في تسيير الناس هو توسع في خلخلة خصوصياتهم وصوغ انماط معاشهم وقولبة رغباتهم وطموحاتهم و تحريم امكانات تحطيم.. فاذا افترضنا ان الديمقراطية التي تنجزها الاشتراكية بحسب مقولة (مزيد.. ومزيد) طالبت أو حاولت أن تعبر عن ذاتها بتعدد الاحزاب فماذا يكون رد فعل السلطة حينها ؟ رد الفعل هذا لا يكون قطعا استقباله بالزهور والرياحين !

ان ظاهر الاشياء يوحي بأن مزيدا من الديمقراطية يستوجب تناقصا في تدخل الحكومة بحياة الناس وليس يستوجب مزيدا من الاشتراكية فما قامت الديمقراطية أصلا الا للحد من سلطة الحكومة وللتوسيع على الناس فيما يحبون ويكرهون . وبافتراض ان دكتاتورية البروليتاريا وحكومة الحزب الواحد وآيديولوجية تحريم التملك استطاعت ان تكف يدها في ظل البيريسترويكا عن التدخل المبالغ فيه في حياة الناس وحرياتهم وانها وقفت عند حد المزاوجة بين الاشتراكية والديمقراطية فسيحدث في وقت قصير أن تُطوى الساحات الاجتماعية التي تتوافق مع الاشتراكية بلا قهر وبرضا الناس وطلبهم و يبدأ عندئذ مرحلة تقليص حرية النقد تتراءى على حالة الانكماش في التوسع الاشتراكي . بعدها تأتي مرحلة الرجوع على الحريات التي أقرتها في اول مراحل الانفتاح تظاهراً من السلطة بانها في صدد تطوير الحرية وتوسيعها حسب دواعي العصر وهكذا ..

أقرب الأشياء الى البداهة ونحن نتكلم في الديمقراطية ان يكون في طوع الناس صياغة حياتهم على النحو الذي يُرضي نفوسهم ، فليس من حق الاقتصاد البرجوازي والتملك الفردي مثلا ، منهوا طريق الأشتراكية الكاملة أو الشيوعية بما فيها اختفاء (السلطة) على حسب زعم لينين . حتى اذا ارادوا تبديل الاقتصاد الحر بالاقتصاد الموجه أو المقيد او المشاع كانوا اصحاب الشأن في ذلك شريطة أن يحدث بالاختيار الحر . كذلك الشأن في ديمقراطية البيريسترويكا فهي لا تكون ديمقراطية حقيقية الا اذا أقرت للناس تبديل النظام أو تبديل نظام بنظام . وأظن ذلك سيوفر كثيرا من الجهد والتعب والمآسي سواء في عالم الاقتصاد الحر أو في عالمكم . ومما يزيد في ضرورة القبول بهذا الأسلوب السلمي الطوعي للتطور هو أن اي ممارسة للقهر من قبل الغرب او الشرق تشجع اشكالا كثيرة من التنظيمات الارهابية والآيديولوجيات المتشنجة على التمادي والاصرار في طريق العبث بالدنيا وسلامة شعوبها . ولقد قيل ان الكبار (يأكلون الأبناء الحصرم والأبناء الصغار يضرسون) . ثم ان الدعوة الى تحرير ارادات الشعوب من الكوابح ليست حربا صليبية ضد الشرق أو الغرب ولا تحتمل معنى تآمريا ضد أية جهة الا اذا كانت الجهة نفسها تضيق بالحرية كما تضيق البيروقراطية السوفيتية بالبيريسترويكا . وشيء من المسامحة مع النفس ومع الناس قدر امكان اعادة البناء أن تمضي قدما بلا تعثر وذلك أولا بالدوام على اجراء الانتخابات الحرة دورة بعد دورة في اتجاه توسيع صلاحياتها حتى لا يتغالى عليها الحزب او المكتب السياسي ، ويصاحب ذلك تحرير

القضاء من كل لحيثة رسمية وتطويع أجهزة الاعلام والنشر للاستعمال الحر بغلك انحصارها في نطاق رغبة السلطة، فالانتخاب الحر والقضاء الحر والاعلام الحر فضلا عن كونه من ايجابيات الحريات العامة هو كفيل ايضا بمنع عودة القهر والحظر، وضمان للانفتاح على غير أوجه النشاط الاقتصادي، ولا أظن ان التوصل الى افضله يستدعي أكثر من الدوام على التعديلات الآلية التي بدأت أخيرا حتى يكون الفلاح مالكا لقطعة أرضه مع بقاء التعاونيات ما دامت قادرة على الاستمرار بنجاح وحتى يعمم تعميم الملكية الخاصة هي الاعمال التي لا تحتمل المشاركة وهي من الكثرة والتنوع بحيث تستطيع امتصاص الملايين والملايين من العمال والكسبة في مهن ومصالح مرة محدودة النطاق بطبيعتها ولا تتحول أبدا إلى حجم بيت روتشيلد وبيوت المال من الوجهة ستريت وتبقى المشاريع الكبيرة ملكا للدولة وتترك احتمالات التوسيع والتعديل للمستقبل حسب ظهور المتغيرات. أنا يا سيدي لست ضليعا في رسم سياسات الاقتصاد حتى اتصدى لتخطيط اقتصادكم ولكني اتكلم بحدود ما هو وارد من فقرات لكتابكم في وضوحها الذي لا يلجئ المعقب عليه الى التفلسف والتفلسف، وما حولي قناديل كثيرة من تجارب الشعوب تضئ الدرب امام بصيرتي وبصري للعثور على الطريق الآمن نحو الرفاهية والسلامة. وأضيف الى ذلك من البديهيات التي يدركها الانسان بأحاسيسه قبل أن يوعي فيها بفكره كأن أقول انه بمثل ما يتكون جسم الكائن الحي من نسيج مترابط متشابك متداخل متعاون فتتوقف صحته وسلامته على تناغم تلك التشابكات والترابطات والنسيابية تعاونها حتى لا يحس بها الكائن الحي وكأنها موجات الطاقة في حركتها التلقائية الخالية من الجهد المتكلف، كذلك حال المجتمع في ارتباط صحته وصحة مرافقه بشيوع التناغم الكامل بين أنشطتها التي لا تحصى حتى يحصل نموها الكامل والأقصى في تلقائية وبلا حاجة الى مقارعة العراقيل وتخطي العثرات، واول هذه الشروط للتناغم هو شيوع الديمقراطية ومستلزماتها من حرية الاختيار والطلب والحركة والاعلان عن الذات وما لا يخطر على الذهن من وسائل تحقيق الهدف.. يجب ان كل ارادة متعالية تريد أو أو تستطيع اعاقة حرية التصرف، لذلك يجب أن يختفي شبح سيطرة الحزب والاجهزة السرية المرعبة والبيروقراطية الخانقة للانفاس جميع المصالح. في العادة يجب أن تكون صلة الأشخاص بالدنيا داخلا وخارجا مفتوحة سواء بتسهيل السفر وبتسهيل الاستيراد و بتسهيل التصدير وبتسهيل الموارد والمواد الاولية ولا يكون لغير سلطان القضاء والقانون سلطان من أحد يتدخل بين الافراد والجماعات وبين رغباتها ومصالحها المشروعة: يجب قطع الطريق على المحاولات الخبيثة للالتفاف حول القوانين والانظمة فالحياة الاجتماعية الناجحة نشاط مستمر ومتعاون ومتساند خال من الارادة المتفردة القادرة على القهر أو الاعاقة او التخويف. فالواقع هو أن الديمقراطية وجه واحد لعملة، وجهها الآخر هو حرية التصرف بما فيه الاقتصاد، وتتمثل الحضارة بالوجهين المذكورين مع ما يلحقهما بالضرورة من الانشطة العلمية والفنية والاجتماعية.. الخ. هذه هي الارضية التي تزدهر فيها العلائق

الإنسانية المنغمسة المجزية، وكل معنى مخالف لها يستتر وراء عناوين خادعة هو وضع الفصاص في دواليب المركبة. ولسنا بصدد تبيان المقتضيات التي تفرض بعض الحدود و الموانع بسبب من المصلحة العامة وقدمت الاشارة اليها فيما سبق.

لقد كان المظنون في الفيزياء و فروعها المختلفة المتصلة بالطبيعة التي ليست لها ارادة و إحساس ان مادتها تفرز قوانين مفروغا منها ومحتومة ولا مجال فيها للاحتمالات، و مازلنا في تصرفنا العام نتحرك على هذا الزعم، فتبين ان ذلك ليس هو واقع الحال - في واحدة من اقوى النظريات الحديثة - في المكونات الجوهرية للمادة فالدقائق التي ترصد بالأجهزة السحرية تتصرف بطلاقة في احوال كثيرة وتكون موجودة في مكانين مختلفين في آن واحد.. وهكذا! وكنا قبل الاطلاع على هذه الحقائق الفيزيائية المحيرة نرى أن الأحياء اصعب في تطويعها للنواميس من المادة الجماد وان البشر بقابلياته المتنوعة وفي قمتها عامل (الوعي) يتوزع على اعداد لا تحصى من كيفية التصرف والاختيار تتغل المسافة بين الخيانة والتضحية، بين الالحاد وعبادة الوثن، بين العلمانية المطلقة و الاتكالية المطلقة، بين الشر المحض والخير المحض... فجاءت الحقائق الطبيعية لتؤكد هذه الصفة الزئبقية في البشر بثبوت كون المادة الميتة نفسها لا يعرف لها تصرف محتوم. واذا كنا نجهل ماذا يريد الفرد الواحد وكيف يتصرف في أمره فنحن اعجز في استشراف مستقبله وهل يستقر على حال واحدة ام انه يتسارع في التبدل ام يتباطأ! ولا نعلم مديات التطور التي تحفل بتغير الاجهزة المصنوعة حتى اننا لا نستطيع القطع بالصورة التي يكون عليها (التاريخ) بعد مئة سنة وهل سيكون هناك (عمل) بمعناه الحالي بعد خمسمئة سنة؟ وكيف يكون الأجر على المشقة، وما المشقة نفسها في المستقبل البعيد؟ نجهل هذه الاشياء وغيرها مما سيتمخض به المستقبل و كشوفه العلمية والتكنيكية خلال الوف السنين، نجهل ذلك ولكن ينبغي ان نكون بعقولنا وآمالنا وتصرفنا في سياق هذا التطور الذي ليس له حدود. و إن اول واجب مقدس وخطير يقع على عاتق طلائع الفكر والاجتماع بفروعه المختلفة تعجيل اليوم الذي تجري فيه الحياة بطلاقة ويكون ذلك بحمل كلفتين كبيرتين: الكلفة الأولى هي الوقوف بوجه اعدام الطلاقة في كل الأصعدة وهي مهمة ضخمة جدا لا تبدو على حقيقتها الا بالتمعن العميق فيها ويكفي لها مثال واحد مطروح لفطنة القارئ: هناك عراقيل هائلة في مسار الانسان منذ آلاف السنين لم تزل تعيش بقوة واعتزاز وتكتسب الزخم فتهزم الحضارة والعلم في احوال كثيرة... والكلفة الثانية هي تجريد الطلائع ذاتها من أسار الأفكار المسبقة والفرضيات المفروغ منها، ثم التنازل عن النخوة في تبديل فكرة محترمة بالية بأخرى جديدة لم تكتسب الاحترام بعد. ونبذ فرض الرأي على الناس من منطلقات استعلائية او مرسومة بروح المغالبة القبلية وما إليها فلا بد لها من ايمان مطلق بكون مجموع الناس وليس ممثلوهم الرسميون هم أصحاب الشأن في تقرير

ما يوافق مصالحهم. إن مشكلة الحرية ليست مع المؤمنين بالحرية في أطارها الواسع الذي يشمل كل اوجه الحياة بما فيها الاقتصاد ولكنها مع المؤمنين بأنفسهم فقط و بمقاييسهم فقط وبشعاراتهم وعقائدهم فقط. المشكلة ليست في تقابلكم مع الاسكندنافيين والسويسريين والهولنديين وشعوب فرنسا والمانيا وبريطانيا وامريكا وهؤلاء، في واقعهم البعيد عن السلطة لا عداء لهم معكم وان كان من عداء فهو بين السلطة في حلف الأطلسي و بين السلطة في حلف وارسو وهو عداء من نوع تاريخي يقوم بين الدول منذ كانت دول وقد قام بين الرأسماليين في حربين عالميتين وقام بين الروس والصينيين وبين الفيتناميين و الكمبوجيين وقام بين الشيوعيين في الوطن الواحد متنازعين على السلطة وستقوم بين غيرها وغيرها من الرأسماليين والشيوعيين وأصحاب العقائد الدينية وغير الدينية وحديثها له مجال آخر. ولكن يمكن اختصار القول فيه الى أقصى حد ان علاجها الأكبر والأكثر حسماً والأهم هو في شيوع الديمقراطية على أوسع مدى. ديمقراطية لا تأويل فيها ولا بتر ولا تحنيق.

فالخطر الأكبر كامن في تركز السلطة بيد الحكومات هي ذات وجود شرعي وتتصرف في الأمور على وجه الضرورة بحرية ذات إطار يتفاوت في السعة ولكنه ذو مساحة ملحوظة في اكثر البلدان وتملك وسائل اقناع كثيرة في أشد البلدان ديمقراطية وليس يوجد شيء يوازن بد الشعوب سلطة بلدها إلا الديمقراطية الحقة وذيوع المعرفة والرأي الحر بما تستلزمه من وسائل التفهيم والتبليغ وأظهار الأرادة وحق الأضراب و المظاهرة والاجتماع حتى اسقاط الحكومة كما سقط نيكسون وأوشك بريغان أن يسقط او سقط قبلهما ايدن وآمزون من وزن أخف.. ولا يمكن ان تكون الديمقراطية كاملة أو وافية بالغرض في أيقاف الحكومات عند حد السلام إلا اذا كانت الديمقراطية - مطلقة التحرف بمصيرها فكل فقرة من عبارة بنحن أيديولوجي مفروض على الشعب هي نزع مقدار كبير من فاعلية الديمقراطية المؤثرة الحاسمة. لقد وردت في الثلث الأخير من الصفحة ٣٨ في كتاب البيريسترويكا فقرة أستعيدها هنا لتساعد على تنوير المقصود فقد جاءت: (ولسوف ننطلق نحو أشتراكية أفضل بدلاً من أن نبتعد عنها. ونحن نقول ذلك بأمانة ودون ان نخادع شعبنا أو العالم) أما أنكم لا تحاولون خداع العالم فذلك فضيلة تشكرون عليها وقد قل وجودها في السياسة وكانت عبر التأريخ عزيزة الوجود. أما أنكم لا تحاولون خداع شعبكم فهو كلام مقبول فقط فيما لو جاء من باب الأستطراد والمشاكلة اللفظية مع (عدم خداع العالم)

وإلا فانه، يا رفيقي في الانسانية ويا مناط الأمل في تعديل سياسات العالم ويا كاسر الجليد عن وجه بحيرة الحياة ببلدكم والبلدات المتصلة بكم، انه كلام يوحد ثلاثة ارباع باب مكون من أربعة الواح كانت تنفرج لمرور المركبات الكبيرة فلا تعود تتسع إلا للدراجات والماشيين على الأقدام. ان الكلام الشافي والمنسجم مع طبيعة اعادة البناء ومنع رجوع التقوقع هو أن يقول: (اننا نصر على الأشتراكية ما دام الشعب متمسكا بها) وذلك مايعبر عن روح الديمقراطية الحقة والمصلحة القومية في واقعها الراهن والقادم. ليس الشعب قاصراً حتى يستسيغ التعامل معه بوضعه امام الأمر الواقع فيقال له هذا طريقك وليس لك غيره فامش فيه راغما او كارها.. ثم اننا لا ندري متى يبلغ الشعب المحكوم بأيديولوجية محددة القصات سن الرشد؟ الا تكفي سبعون سنة؟ ومتى تنتهي الوصاية عليه؟ والكلام المقتبس فيه اشارة واضحة الى عدم توافق في الرأي بين القيادة وجماهير الشعب، من غير الحزبيين، حول مواضيع منها: نطاق الاشتراكية ومدى سيطرة الدولة على الاقتصاد وحرية التصرف. ولقد لاحظت فرقا واضحا بين آراء الكتاب من عامة الناس فيما ينشر لهم في صحف هذه الايام وبين كلام بقوله المذيع في اذاعة موسكو او غالبية الكاتبين في القضايا الدولية بمقالاتهم المنشورة في اعداد من مجلة (قضايا دولية) وآخرها العدد الصادر في شباط، فبراير ١٩٨٩. وهذه ظاهرة لا تطمئن كل الاطمئنان على البيريسترويكا، وعلى قدر ما املك من حق الكلام في قضايا مماثلة ومدفوعا بالحرص على سلامة المسيرة التصحيحية يدفعني حسن الظن الى ترجيح كون السبب في صدور مثل هذا الكلام الخطير هو قطع الطريق على البيروقراطية الداخلية والناقمين على اعادة البناء، في محاولتهم زرع الشك ونشر التوجس في طريق البيريسترويكا باضعافها عن طريق اتهامها بالتنكر للاشتراكية والارتداد على التراث الثوري. فاذا كان ذلك هو الواقع فلا خوف في أي كلام يقال بل اللوم أيضا على اي تمسك بالاشتراكية اذا كان الشعب يختار طريقها وان كان التوافق صعب التصديق بين اختيار شعبي وبين قرار قطعي مفروغ منه صادر من أعلى. ان جميع الوعود الحلوة بمستقبل أفضل فيما جاء بالصفحتين ٢٨ و ٢٩ من الكتاب منوطة أولا وثانيا وعاشرا بقناعة الناس وأيمانهم أنهم يعملون مايحقق خيارهم الحر او يتحقق من هذا الخيار. صحيح ان حكومة الصين استطاعت أن تحقق معجزة المطالبة بالحريات الديمقراطية في ساعات معدودات وراحت بعدذلك تتغنى على الدنيا أنها عالجت مسألة داخلية ضمانة ارتدادية و أن الدنيا ستكون بعد ذلك بخير واحاكي، لكن أغلب الاحتمال انها ستعالج الأمور بمزيد من التهديد والكبت ولا نظن مقاليد الواقع ترضخ طواعية لرغبة مجردة في الاصلاح دون أن تكون مسلحة باسباب النجاح وأولها ايمان الجماهير أنها تعمل الشئ الصالح بارادتها ورغبتها. اقول للتوضيح انني اسمع ان الدارات المؤسسات الانتاجية في اليابان ابتدعت اساليب مبتكرة لامتصاص نقمة العامل منها انها صنعت تماثيل ادمية بمواصفات حددها علم النفس مخصصة

لكي يلكمها ويركلها العامل المتضايق تفريغاً لشحنة القلق المتجمع في نفسه، ويردد المؤمنون بالكلول الجذرية قصة هذه الوسيلة من باب البرهنة على تزييف المستغلين اليابان لاحاسيس عمالهم.. ولا أناقش تعليل هؤلاء القوم وافترض صحته ولكن ستبقى هذه الوسيلة اليابانية (المعروفة أشرف وأنبل مليون مرة من قتل العمال المتضايقين بالجملة، ويالليت أن زعماء الصين صنعوا بضع مئات الالوف من هذه التماثيل فنشروها في المدن والقرى ليفرغ فيها مئات الملايين من المتضايقين ضيقهم وغضبهم قبل ان يلجأوا الى وسائلهم الانسانية الثورية من دبابات الشعب ومدافع الشعب وسجون الشعب والتجريم الشعبي للاعتراض الشعب على خيارات السلطة والحزب !!!

جاء في وسط الصفحة ٢٨ من الكتاب مايلي: (ومزيد من الاشتراكية يعني مزيداً من الوطنية والطموح لمثل نبيلة..) وهو كلام ورد ضمن كلمات كثيرة مماثلة كلها اشراقات وبشائر من مثل ان مزيداً من الاشتراكية يعني:

مصنع ديناميا وجيشاً ابداعياً ومزيداً من القانون والنظام.

مزيداً من الاساليب العلمية والمبادرة في الادارة الاقتصادية والكفاءة في الادارة.

حياة اغنى مادياً وافضل للشعب.

مزيداً من الثقافة والانسانية في الانتاج.

مزيداً من العلاقات الاجتماعية والشخصية بين الناس.

مزيداً من الكرامة واحترام الذات بالنسبة للفرد.

مزيداً من الاهتمام المدني بشؤون البلاد الداخلية والخارجية.

مزيداً من كل هذه الاشياء الكامنة في الاشتراكية.

أقول عن هذه الاشياء ببشائرها وهذه البشائر المماثلة المنبعثة من الافكار والعقائد المجردة انها جميعاً ديكورات حول الشعار الاساسي المرفوع فوق رؤوس الناس وتتساوى فيها الجهات الأربع الأصلية من شرق وغرب وشمال وجنوب والجهات الفرعية من شمال غربي وجنوب شرقي.. الخ.

هنالك نصائح وتوصيات خالدة ناصعة تسلسلت منذ الوف السنين وبعضها مشفوع بالثواب الابدي ولكن الذي فرض نفسه على الناس من السلوك والتصرف والخلائق كان شيئاً من مواليد الواقع السوء او الواقع الوسط او الواقع الصالح. واقولها بثقة مطلقة ان اساس الاساس في الخلق الاجتماعي السليم وهو الخلق الذي يتجوهر حول المعنى العميق لكلمتي (الواجبات والحقوق) فلا يتجاوز الى العدوان والتقاعس، يتجدد في نضج القيم الحضارية المتولدة من الواقع النظيف المتقدم الذي يصبح فيه الالتواء مرفوضاً رفضاً قاطعاً في ضمير عامة الناس ويكون الملتوي فيه مغضوضاً ومنبوذاً، ويبتعد فيه اوهام التسلط وفرض الذات ومخالفة القوانين وانتهاز الفرص من اذهان الناس حتى ان المستطرق في آخر الليل بشارع مقفر لا يفكر في تخطي اشارات المرور على حين يعتبر الشخص القوي في اغلب بلاد عالمنا الثالث بالمجاهرة والتحدي في كسر كل الانظمة ووضعه صفعة على خد رجل المرور.. السلوك المتحضر هو الضمان الاوحد للتصرف السليم الذي يقود الى هذه (المزيدات) المستخلصة في الصفحة ٢٨، وسنت بصدد التقلص في تعليل قدرة

الحضارة على تقويم السلوك ولا يصدد احتمال وجود مصدر آخر للسلوك القويم مستقل عن مفهوم الحضارة الحديثة ، وهو مصدر متصور وموجود ايضا ، فأكتفي فيها يقولي ان متطلبات الحضارة ومقومات وجودها ودوامها وارتباط فاعليتها وعطائها بالسلوك السليم اضافة الى طبيعتها التهذيبية هي التي تلجئ الأفراد والجماعات الى الألتزام بما تطلبه الحضارة من تقديم (الواجبات) على (الحقوق) حتى ان الاخلال بمعاييرها يعود بالضرر المباشر على المخل نفسه وعلى غيره . ويمكن تشبيه ذلك بحالة جماعة سافرت في قافلة فعلى واحد منهم حريص على سلامتها ولا احد منهم يفكر في ثقب إطاراتها وقد يعبث بها شخص شنيع الخلق من خارج القافلة ولو كان ضمن ركابها لما عبث .. شركة توزيع الحليب محتاجة لحسن قيام موظفي الكهرباء بواجباتهم حتى تستطيع الصعود بالمصعد الى سكان الطبقات العليا في العمارة ومحتاجة الى أمانة رجل المرور في تنظيم السير كي تصل الى مواعيدها في اوقاتها المحددة .. وهكذا فالكل محتاج للكل في الضبط والانضباط واداء الواجب فيصبح التخلق بالسلوك الحضاري ضرورة وعادة متأصلة في النفوس ولا نتكلم في الشواذ والمجرمين ومن إليهم .. وعلى قدر تخلف المجتمع وانقطاع الارتباط بين مصالح مجموعات سكانه وعدم توقف معيشة هذا على معيشة صاحبه يهزل الشعور بأولوية (الواجب) . ونقلة دقيقة واحدة الى حالة القرى في تأخرها المديد ومعرفة انعدام المرافق العامة فيها التي يستفيد منها عامة سكانها ان روح الفردية وعدم الاحساس الجماعي المستحوذ عليها راجع الى هذا السبب ، وبقياسهم الى اهل المدن نجدهم يفتقدون في القرية تلك المرافق التي تدعو سكان المدن الى المشاركة الوجدانية فالمدرسة والسوق ودائرة البريد والمحاكم والمستشفيات والبوليس والمجاري و.. و.. كلها مرافق عامة اذا تعطل واحد منها عم ضررها جميع المدينة و لا يوجد واحد من تلك المرافق في القرية - يوم فتحت عيني على هذه الدنيا بوعي منذ خمسين سنة وأكثر - وقد احصيت في بلدي ملتقى مصالح القرية فوجدته ينحصر في ١- بيت العبادة ٢- ساعة البيادر في بعض القرى ٣- الساقية في القرى المستقيمة ٤- المقبرة ٥- مضيف المختار في القرى الكبيرة ولا شيء بعد ذلك حتى يوم انتشر فيه التعليم والخدمات الصحية وبعض الخدمات الزراعية بعد الحرب الثانية بأكثر من ربع قرن فكانت الأحوال في القرية تخلق روحا للفردية المتأصلة بحيث ان هلاك مصالح الجار لم يكن يؤثر في جاره بل ربما كان بوار زراعته سانحة توفر لجاره يدا عاملة يحتاجها .. ومن خلال هذه البديهيات انظر الى مقولة ان مزيدا من الاشتراكية يعني مزيداً من الوطنية والطموح لمثل نبيلة فأجد ان زيادة الأحساس بالممتلكات عن طريق التملك الفردي أحرى أن تخلق في المواطن مزيدا من الوطنية والطموح لزيادة ارتباطه بملكيته الخاصة ومشاركته عامة الناس في الارتباط بالملكية العامة فهو في القياس يكون كالوالد الذي له فضل احساس بولده من صلبه فهو في حالتي الأبوة والملكية الخصوصية ذو دافع أقوى في الوطنية والذود عن الموجود عن شخص لم يتزوج ولم يملك مالا خاصا . ولنا زاوية أخرى ننظر منها الى الموضوع فالمواطن يحب وطنه أكثر من اوطان الأباعد ولا أحد يلومه في ذلك فهل يلام اذا احب ملكه الخاص أو ولده من صلبه حبا متميزا ؟ الواقع ان زيادة ارتباط الانسان بالاشياء تأتي من خصوصية ارتباطه بها.

وحتى يتساوى حبه لما يملك مع حبه لما لا يملك من اطايب الحياة في وطنه لابد له من قطع طريق طويل شاق في مراحل التحضر وتكوين قيم (عامة) بديلا عن قيم (خاصة) وعليه بعد ذلك قطع مرحلة ~~أخطر~~ شاقة أخرى للاندماج في القيم العالمية حتى يتساوى حبه لوطنه مع حبه لكل الأوطان وذلك أشبه بالأحلام ولا نرى له اليوم ضرورة ملحة لأن الوقت فيه مبكر جدا وقد كف ان يتساوى جميع الناس في منح حبهم لما تميل إليه قلوبهم بلا عدوان على الآخرين وليست بهم حاجة لتكلف سلوك لا ينبع من نفوسهم ولا من مقتضى الاحوال التي تكتنفهم . إننا اذا أخللنا بالمعايير المعتادة النابعة من طبائع الاشياء وصلنا سريعا الى القول بوجوب تخلي الفرق الرياضية الممتازة في مسابقات الاولمبياد عن اصرارها على حيازة الاولوية كي تتجلى روح النبيلة بتفضيل الضعيفة على نفسها . وتنتخب ملكات الجمال من بين الأقل حسنا جبرا لخواطرهن . و منح الطلبة الأقل ذكاء اعلى الدرجات في باب التشجيع وهكذا .. اذا تخلينا عن مبدأ تحريم التملك وأطلقنا الحرية للفرد في المجتمع الاشتراكي والفرد في مجتمع الاقتصاد الحر يتساوى الفرص امام الجميع فان حقائق هذا العصر ستعين الفرد غير الاشتراكي على الفوز بقصب السبق كما اعانت الفلاح المالك لجزء من الارض في روسيا على تجاوز الانتاج الجماعي بنسبة ٦/١ .

اما الطموح لمثل نبيلة فهو بدوره من ثمرات الحضارة فالأشتراكية في كمبوجية وفي بلاد أخرى متخلفة لم تقدر على تقديم شيء بعيدا عن العنف والدموية وكذلك الاقتصاد الحر في اغلب بلاد العالم الثالث كان مصيدة لجمع الغنى والجاه من قبل القادرين و المستغلين مع ملاحظة ان إشتراكية بولبوت اخذت من جماهير الناس ثمنا باهظا وتضحية هائلة حتى جاءت الى الحكم فمارست جرائمها وقتلت اكثر من مليون انسان على حين يسود الفساد في العالم الثالث غير الاشتراكي كتراث منتقل من الماضي بلا تضحيات فهو فساد رخيص بقياسه الى كلفة اشتراكية دموية . والحق (الذي) هو ان أكبر الغنائم الاعتبارية التي يحوزها الانسان في البلدان المغلقة التي لم ترفع شعارات تطلب التضحية بالنفس هي قدرة الشخص على ان يقبع في داره يمارس كسله وتخلفه وفقره عوضا عن اندفاعه الى المهالك بتحريض رافعي الشعارات التعبيرية فليس مما يسر النفس ان يكون هلاكها في اتون معارك الثورات العقيمة بدلا من موت الخمول في ظل حائط أو شجرة . ولا فخر في الأنصياع لحاكم ثائر يسوق الناس الى حيث تطيب نفسه هو بالقياس الى عيشة زرية في ظل رئيس قبيلة أحمق بلا طلبات باطلة .

وفي غياب الحضارة لا تساوي الشعارات قيمة تعادل ثمن القماش والحبر المستهلك في كتابتها . والملحوظ هو أنه حيثما كانت الحضارة راسخة قلت بل انعدمت الشعارات وسلك الناس سبل حياتهم بلا ضجيج ولا ادعاآت عنترية وتكاد تختفي من كتاباتها العبارات المثيرة المنتفضة بالتوفز وندر الحديث عن وجوب التضحية والارتفاع فوق

رغبات والتخلق بأخلاق الملائكة فهذه هي أصناف الحياة المتحضرة المرغوبة من سقط الكلام الذي يزدريه المجتمع المتحضر.

يبقى أن أقول في الوطنية والطموح السبيل شيئاً أساسياً لا يجوز إغفاله: من أخطر المخاطر في الأمور الدنيوية أن تستند حساباتنا إلى افتراض الوطنية والنبل والاستعداد للتضحية وما إلى هذه المعاني السامية فهذه إذا كانت موجودة قامت بعملها الجليل بلا تعب من أحد وأضافت إلى ثمرات الأتقان والضبط والإدارة الرشيدة فضل بركة أما إذا كانت مفقودة كما هي مفقودة في المعتاد في أغلب الأعمال المأجورة بالعالم الثالث فإن افتراض وجودها كفيل بقتل أي مشروع مهما تكن خطورته ومهما تكن درجة الكفالات و الضمانات لسلامته ونجاحه لأن الوطنية المفترضة تنقلب في حالة فقدانها إلى هدم و تعويق وتوصيل وبعثرة مقصودة، ففي غياب الحضارة والشعور بالمسئولية ينقلب القيام ببذل الجهد كلفة يرفضها الجميع القائم بالعمل ويصبح انتهاز فرص الاسترخاء و تعمد الكسل و تسريب الخطأ إلى المنهج المرسوم هو ما يستسيغه المشرف والعامل بضمير ميت. والمشهود الذي لم تخطئه العيون في بلدنا على مدى أزمان طالت حتى اليوم هو أنه بعد شيوع فكرة الاستغلال الطبقي أصبح من شعارات الاحتراز (بذل أقل جهد ممكن) حتى صار العامل يصلي بدل صلاة الظهر الواحدة جملة من الصلوات في الأعمال التي التزمها الأجانب الذين لا يعرفون عدد الصلوات في الشريعة الإسلامية. لقد وجدت في تجربتي مع هذه الأحوال أثناء ما كنت في سنة ١٩٦٠ مدير إدارة شركة تقوم بأنتاج الطابوق الفني، أن العامل الحارس بالليل في الشتاء الذي يزود بالفراش والمدفأة و بأجر إضافي كان يفتح أبواب المجففات الكهربائية طلباً لزيادة الدفء الذي لا لزوم إليه ونكاية بالشركة فيتشقق أكثر من مئة ألف طابوقة فنية كل ألف منها بثمانية دنانير في تلك الأيام فتُرمى صباحاً في محل النفايات فيكون العامل قد ازداد دفئاً روّح به مزاجه في بضع ساعات من الليل بتخريب بضاعة ثمنها ثمانمئة دينار والسوق تحتاج البضاعة ومعها الحركة العمرانية في البلد وكل تبرير العامل أنه يلحق الضرر بالمستغلين!!!

إن المسئول عن مال عام، مطلوب منه أن يتخذ له من أسباب السلامة والنجاح و ضمانات التقدم ما هو خليق أن يفعله في خاصة ماله، ولا أظن أحداً يخاطر بالقليل الذي يملكه ولا بالكثير اعتماداً على حسن الظن وتوقع التصرف الأوفق. وربما كان ذلك أحد الأسباب في نجاح المشروع الفردي قياساً على فشل المشاريع العامة التي يقل فيها الاعتناء بوجوه نجاحها وازدهارها. والعلة في الفرق بين الحالتين هو عودة الخسارة في المشاريع العامة على مجموع الناس، وأوضح ما يكون ذلك من حيث فقدان الحرص على المال العام هو في مشاريع العالم الثالث المتخلف حضارياً. هاهنا في صدد المشاريع الحكومية يوجد عامل حاسم أُلصق بها من المعنى الأعمق بالإنسان ذلك أن خيار الامتناع عن العمل الموجود عند الفرد لا يوجد عند الدولة فلا بد لها أن تقوم بالإنشاآت وتقديم الخدمات

والدخول في المعاملات من شتى الأنواع والأحجام. ولما كان توالي الفشل في المشاريع وبوار المنتجات من استهلاكية وانتاجية وخدمية أقتل داء يصيب الاقتصاد في الصميم ويترك الناس في قبضة الفاقة لاسيما في البلدان المحكومة بالاشتراكية حيث يضيق مجال الجهد الفردي الى حد الاختناق وجب التحسب للأمر إلى أقصى حد. والتحسب لايكون بأطالة التردد في الاقدام على العمل بسبب الخوف من الفشل فانه اذا كانت الأحوال وحقوقات النجاح والفشل واحدة من الصيف الى الخريف فما جدوى تأخير المبادرة مادامت النتيجة هي الفشل. والذي أراه، رغم كوني غير متخصص في الاقتصاد [وان كنت لا أقل عن قائد حزب يشرف على الاقتصاد من موقع مسئوليته] ولكني ادلي بالرأي في حدود المنطق المستوحى من كتاب البيريسترويكا الذي ابدى اليقين في نجاح الاشتراكية بالادلة الملموسة عن القول، فالذي أراه اولا وقبل كل شئ هو تجريد لعقة العيش والكسوة والسكن والمتاع وطريقة الحياة وتكوين الاسرة من الشعارات السياسية والطموحات الايديولوجية و الالهامات الفلسفية فلا يطالب الفلاح ان يحرث الارض (بوطنية) ويعلف الدواب (بروح اشتراكية) ويذهب الى الرقص مشحونا بالافكار الطبقية والهموم البروليتارية وان يخطب عروسته بنية زيادة عدد السخيلة ويفتح الراديو على انغام معادية للامبريالية.. فان ذلك من قبيل زيادة الملح في طبيخ مالح. انا اعلم ان المجتمعات القائمة بالاساس على الايديولوجيات تستهلك مقادير ضخمة من الكلاشيهات اللفظية الفارغة ولكني أعلم أيضاً حقيقتين خطيرتين في هذا المعنى هما الزم من اللازم في وجوب تذكرهما وهما:

أولا: يجب ان تنتهي نغمة التفزلك في المبادرة والشعارات في وقت من الاوقات و أقربها أحسنها لان الدوام عليه دروشة وهلوسة وذهول عن حقيقة الحياة التي تجري بعيدة كل البعد عن الدروشة والهلوسة. ترديد الشعارات والتعاويذ الايديولوجية لها مواعيدها ومناسباتها شأنها شأن الزواج في قبوله للطبل والزمر والزغاريد ليلة الزفاف وفي ذكراه السنوية.

ثانيا: ان تذكير الناس مدى العمر بوجوب التمجيد والتقديس للأيديولوجيا يجعلهم كارهين لها كراهة الموت وتكون النتيجة ان كل عمل يحرق عليه بخور الشعارات والايديولوجيات يكون مهددا بالفشل. والظاهر ان التحسب لسلامة المشاريع في غير الأثقال على الوطنية والروح النبيلة التي لا تجدي على الاطلاق يقتضي أولاً ما سبق ذكره من تخلي الدولة عن الأعمال والحرف الصغيرة ذات الطبيعة الفردية وتركها للأفراد جملة وتفصيلا مع بذل المعونة والدعم لها على قدر الأمكان والاقتضاء بتوفير المواد الاولية وتسهيل ظروف العمل.. و.. على النحو الموجود في الدول المتقدمة. ويقتضي ثانياً الاسترشاد بأساليب العمل المتبعة في في بلدان الاقتصاد الحر في المشاريع الكبيرة من حيث الادارة والحوافز وتقسيم العمل... إلى آخر قائمة الاشتراطات. وفي وسط الصفحة ٢٩ من الكتاب كلام يفيد في هذا المقام فقد جاء فيها تعليل للصعوبات والمشاكل في السبعينات والثمانينات فذكرها حتى وصل

السبب الأخير لها وهو أنه راجع إلى التمسك المتواصل بأساليب وأشكال الإدارة الجماعية التي نشأت في ظروف تاريخية معينة في المراحل الأولى للتطور الاشتراكي) هاهنا يستشف النظر المدقق حكمتين كبيرتين:

الحكمة الأولى هي أنه إذا كان التمسك بأساليب ~~الإدارية~~ الإدارة الجماعية خطأ مؤديا الى الإخفاق فان التمسك في التعيينات بأساليب أقل تقدما من أسلوب (آخر موديل) في الدول الراقية سيكون أيضا سببا للإخفاق خاصة لأن طبيعة العصر تستدعي التواصل و التعامل مع الدنيا كلها بالاستيراد والتصدير وتبادل الخبرات والزيارات فليس من المقبول الدخول في حلبة السباق بسلعة مدهونة بالكلاشيش اللفظية و بالحكم المركونة في الأرشيف الثوري فان كل ما يمكن تقطيره من البراعة الإدارية من ارشادات ماركس ولينين لا يساوي لمحة ذكية واحدة من متمرس بالتعامل المتفتح مع تكنيك الآلات ونوازع النفسيات.

والحكمة الثانية هي ان الشجاعة الأدبية التي تفتح دفاتر الماضي لكشف اخطائها مطلوبة بصورة مضاعفة لكشف دفاتر الحاضر تجنبا لتكبير الخطأ من ان يفعل فعله المميت في عصر متسارع الخطى لا يستطيع التوقف ريثما يسمع عذر المخطئ؟ فالمهمل والمفرط خالخطأ وفجاجة الأسلوب واضحة منذ الخطوة الأولى لان وسائل الاتصال العصري تجعل النماذج الناجحة من كل نوع في متناول يد جميع الحكومات والهيآت والأفراد فلا عذر لأحد يبدأ بالخطأ لانه يقدر أن يعرف ما هو الصحيح فلا يجديه تحججه بأن مذهبه وعقيدته و سلامته الايديولوجية تأبى عليه كذا وكذا فالاقتصاد وتوفير لقمة العيش ليس طقوسا دينية بأرغفة مقدسة من السماء.. ان تكون كندا مصدرة للحبوب وتكون روسيا مستوردة مرفوض ومدحوض ومنبوذ في كل مذهب ودين وهل من الفطنة والمنطق طلب التكنيك من الدول المتقدمة ثم الامتناع عن تطبيق أسلوبهم الناجح في المشاريع فكلاهما ما صدرن واحد ويمكن انه بعدن الاستقلال والتفاوت الطبقي فالظاهر انه وحده يفيض بالخير والبركة.

في آخر هذا الفصل بالصفحة ٢٩ بعد الفقرة المقتبسة أعلاه تأتي هذه العبارة: (فالأشتراكية كنظام اجتماعي فني، وكطريقة للحياة تملك امكانيات ضخمة للتطور الذاتي والاتقان الذاتي وعلينا ان نكشف عنها. وتملك امكانيات ضخمة كذلك لحل المشاكل الرئيسية للتقدم العلمي و التكنولوجي والاقتصادي والثقافي والفكري للمجتمع المعاصر ولتطوير الانسان (الفرد).

ببساطة يا سيادة الرئيس نحن بالتأكيد، ان حرصكم على الاحتفاظ بالمجهود الضخم الذي اقترن بتضحيات هائلة حتى تنفيذ الثورة وما اعقبها من سنوات المصاعب القاهرة للظفر في الحقبة الستالينية يحرك فيكم عاطفة البنوة البارة بالسلف فتستعيرون له هذه الاوصاف المحركة للحماس. ولما كنت غير مطلوب لشئ من هذا القبيل انما اخرطمي في كشف ما اعتقد انه محاذير يجب تجنبها البيريسترويكا اضافر قيامها بالدور المنتظر منها على أكمل وجه فان لي رأيا حول هذه الفقرات الواردة في النص المتقدم هو ابن التجربة وحصول منطق الواقع الذي عشته بعمق. فاول ما اقوله هو أن اي نظام للحكم ولو للمعتوهة يوصف بانه (اجتماعي فني) يبتعد كثيرا من ان يكون متوافقا مع الميل الفطري للمواطن الاعتيادي وهو يمارس

الحياة . لان التنظيم الفني عبارة عن شبكة متصلة ومستمرة من الاوامر والنواهي والقيود والطقوس والقولبة نلحظها في الجندية وفي الرياضة البدنية وفي التمثيل السينمي و المسرحي وفي المهرجانات التي تقام في المناسبات وفي ضوابط الريجيم وفي ارکان العبادات وفي قاعات الدرس وما الى ذلك . ينهض الكبير في الثكنات كل صباح بانضباط ويلبس بانضباط و يأكل بانضباط ويمشي بانضباط ولكنه في بيته يحب أن يتمطى في فراشه ويتثاءب بفم مفتوح ويسترخي حتى الضحى ويأكل على مزاجه ويمشي بتكاسل او بنشاط حسب الرغبة . انى لأؤمن بانه اذا كان الشعب الصيني يتمرد على حكومته لاشيء الا نقمته منه على توحيد الملبس المفروض على رجاله ونسائه لكفاه ذلك سببا مقنعاً . لقد رأيت بعيني رأسي ما حصل لسيدة صينية تلبس اللباس الرسمي الزاهد في خشونته على الرجال حين لبست ملابس كردية مزهرة بألوان زاهية أهديناها إياها في مناسبة مجاملة فقد كادت ان تقيء عن نفرة المقولبة على الخشونة حين اكتست بما يشبه ريش الطاووس المتضاغم مع أنوثتها ... اذا كان الخيار في الملبس ممنوعا على الشعب فأي خيار يبقى له في المطالبة بجوهر انسانيته ! ولا بد من القول ان هناك فرقا كبيرا بين اختيار الشخص لمعيشة منظمة توافقه ولا يعتدي فيها على خيار الآخرين وبين معيشة منظمة مفروضة عليه بأمر فوقي . في حياة كل منا قيود كثيرة من الوظيفة والاجتماعيات ومطالب العيش وحكم الأحوال الطارئة تضايقنا وتمتص جانبا هاما من احاسيسنا المتمتع بالدنيا فليكن ما زاد من وقتنا على هذه القيود متروكاً للرغبة الحرة خارج الأطر الفنية .

بصدد كون الأشتراكية تملك امكانات ضخمة للتطور الذاتي يمكن القول ان ذلك متروك لنتيجة المناهج التي تتخذ برنامجا سياسيا ، فالاشتراكية فيما مضى من زمان لم تستطع ان تمنح الفرد السوفيتي ابسط الحريات الشخصية المتمثلة في حق السياحة والسفر بلا ضمانة رسمية وتترك الحقوق السياسية والديمقراطية التي كانت محظورة حتى على الحزبيين الا بالقدر الذي يخدم سيطرة الحزب على الجماهير . ومهما يكن من قدرة الاشتراكية على تطوير الذات فهي بالبداهة لا تبلغ في ذلك مبلغ الانظمة الديمقراطية ذات الخيارات المتعددة خارج سيطرة الحكومات والأحزاب حيث يكون كل فرد مدرسة قائمة بذاتها للابتداع انماط الانشطة من ترفيهية وانتاجية وخدمية وغيرها ، واقول موضحا انه حتى الفرد في الدول الديمقراطية يكون أكثر ابتداعا في مشروعه الحر عما اذا كان موظفا في شركة ويكون في الشركة أكثر ابتداعا منه وهو موظف حكومي . والمشكل الخطير ينشأ حين يظهر ان اسلوبا معينا في احد المرافق الاشتراكية خاطئ او قاصر فسيكون تصحيحه او تعديله اصعب كثيرا عما اذا كان الخطأ في مشروع فردي . وحين تكون المشاريع كلها مرتبطة بالدولة في النظام الأشتراكي فالتعرف فيها على نحو يمكن وصفه بالابداع لا يكون سهلا كما يبدو هكذا على الورق لان ارادات عليا كثيرة تحكم هذه المشاريع وهي التي تغذيها بالمواد و بالامكانات وبمجالات التسويق و... و... هي على وجه الضرورة تفقد حرية اختيار الأسلوب لارتباط نجاحه بأرادة وتقدير الجهات التي

توفرلها هذه الامكانات . وليس هناك ما يمنع اختيار احسن المقترحات المقدمة الى الادارات في المعامل والمزارع الاشتراكية وغالب الاحتمال ان يترتب اختيار الى الشخص القوى بوظيفته الرسمية في هيكل المشروع.

كل المجالات المذكورة في النص المتقدم تكون في المشاريع الفردية أضمن نجاحا وأسهل تحقيقا منها في الاشتراكية فقد مضى الزمان الماضي بحصول هائل من التقدم العام الشامل في جميع أصعدة المجتمع القائم على الديمقراطية الحقيقية وعلى الحرية الفردية و بمحصول ضخم سلبي في المجتمعات الاشتراكية وليس يوجد سبب يغير توقعاتنا في المستقبل ولم ينقض حتى اليوم دليل على ان المتغيرات أضعفت احتمالات النجاح للجهد الفردي و ينقض الدليل باستمرار على ان المشاريع الكبيرة ذات صفة (المشاركة الجماعية) تكون في المجتمعات البرجوازية ذات الحضارة المتقدمة أوفر انتاجا وأحسن نوعا من مثيلتها في بلد اشتراكي ماركسي ، وهذه حقيقة لا تخفى على أحد ولا يضيق بها حتى الشيوعي شريطة أن يمسح من ذهنه سبق إيمانه بان العمل المأجور في غير الاشتراكية متدنس ومنحط بالاستغلال . وهذه الحقيقة تكون أظهر ثباتاً في كتابات المواطنين السوفيت الذين هم من عامة الشعب ويكتبون في ظل الفلاسفوست بلا خوف فانى لم أقرأ لأحدهم شيئا مدح الاشتراكية المطبقة عندهم ، وما شذ احدهم في مدح اساليب المعيشة بالنظام القائم على حرية الاختيار.